خَالد محَمّد خَالد

أبناء الرسول في كربلاء



جمادى الآخر ١٤٢٥هـ ـ يوليو ٢٠٠٤م

الناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

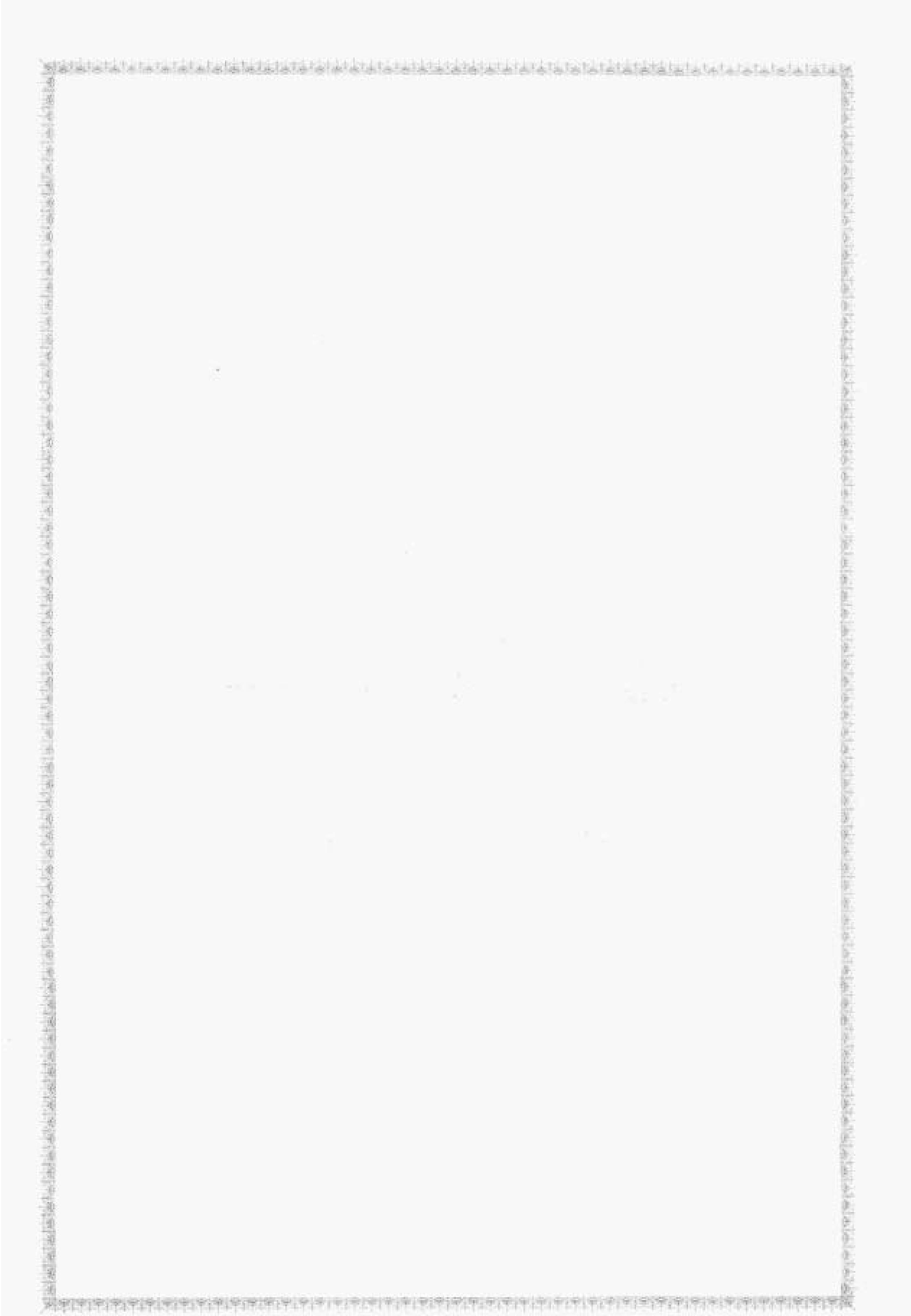
٥٠ شارع الشيخ ريحان ـ عابدين ـ القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ ـ ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمـــــة

من الصعب أن نجد في تـاريخ البشـرية كلـه، يومـا كذلـك اليـوم الفريد والمجيد.. وأبطالا، كأولئك الأبطال الشاهقين والباهرين..!! إذ لم يكن الأمر في ذلك اليوم، أمر شهداء برزوا لمنايـاهم فـي استبسـال وغبطة..

ولا أمر جيش، خرج لجيش مثله، فأبلى وأحسن البلاء..

إنما الأمر الذي شغل الدنيا في يوم كربلاء، هـو أنـه اليـوم الـذى تجلت فيه قداسة الحق، وشرف التضحية على نحو متميز وفريد..!!

وصحيح أن تاريخ الإسلام مترع بالمشاهد الزاخـرة بقداسـة الحـق وشرف التضحية، أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيمـا تـلا عصـره الرائد العظيم من عهود وعصور.. بيد أن يوم كربـلاء، تبقـي لـه سـمته المجيدة، وميزته الفريدة.

فالقضية الجليلة التي دار مـن أجلـها الصـراع.. والقلـة الصـامدة الماجدة، التي وهبت حياتها لتلك القضية..

والطريقة التي دار بها القتال بين أربعة آلاف فارس مـن جيـش ابـن زياد، واثنين وسبعين لا غير.. هم أنصار "الإمام الحسين"..

والأحداث المروعة، التي سبقت ذلك اليوم..

والحصاد الأليم، والعظيم الذى خلفه، بعد أن مالت شمسه للغروب..

كل ذلك يجعل من يوم كربلاء يوما فريدا في تاريخ الآلام والبطولات.. في تاريخ التضحية والمجد.. في تاريخ المأساة والعظمة..

وفي تاريخ الحق الذي شهد في ذلك اليوم ـ ورغم هزيمة أبطاله ـ سيادة وانتصارا قرت بهما عيناه..!!

إن أعظم ما صنع "الحسين" وأهله وصحبه في ذلك اليوم هو أنهم جعلوا الحق قيمة ذاته، ومثوبة نفسه فلم يعد النصر "مزية" له.. ولم تعد الهزيمة "إزراء" به..!!

لقد وقف اثنان وسبعون بطلا، وراء قائدهم العظيم "أبى عبد الله الحسين" ليس لهم في إحراز النصر على عدوهم أدنى أمل ..

وليس أمامهم سوى القتل بأسلحة خصم فاجر، متوحش، مسعور.. وأمامهم فرص النجاة؛ إذا هم أرادوها لكنهم رفضوا النجاة مادامت ستكون غمطا لقداسة الحق، وثلما لشرف التضحية..!!

وهكذا راحوا يقاتلون حول قائدهم الممجد، معانقين المنايا، واحدا بعد واحد.. وهم يصيحون، بل يغنون:

الله، والجنة.. الله، والجنة ..!!

من أجل ذلك، يرفض هذا الكتاب الوقوف عند اعتبار "كربلاء" مأساة وفاجعة، ومناسبة للبكاء والعويل..

ويمد بصره نحو مضمونها الصحيح، وجوهرها النضير، فيراها مهرجانا للحق وعيدا للتضحية، ليس لهما نظير..!!

إنه يوم لم يعرف المسلمون بعد، حقه عليهم، ولا واجبهم تلقاءه،

وإن الأقدار لم تدع رءوس أبناء الرسول ﷺ تحمل علـى أسـنة رماح قاتليهم؛ إلا لتكون "مشاعل" علـى طريـق الأبـد.. للمسـلمين خاصـة، وللبشرية الراشدة كافة، يتعلمون في ضوئها الباهر: أن الحق وحده هـو المقدس.. وأن التضحية وحدها هي الشرف.. وأن الولاء المطلق للحق والتضحية العادلة في سبيله، هما وحدهمـا اللـذان يجعـلان للإنسـان والحياة قيمة ومعنى ..!!!

فهل يأذن حفيد الرسول ﷺ وأبو الأبطال، أن أقدم عنه وعـن رفاقـه الأبرار هذه الصفحات..!!

إني لأجاوز قدري، إذا زعمت أو توهمت أننـي قـادر علـى إيفـاء تضحياتهم وعظمتهم حقها..

لقد وجدت _لا غير_ عبير تلك التضحيات وتلك العظمـة؛ فرحـت أنادي الناس كي يستمتعوا معي بهذا العبير..!!

وليشهدوا _كما لم يشهدوا مـن قبـل_ شـرف التضحيـة، وعزمـها القدير..!!

ويا أبا عبد الله

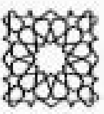
سلام على البيت الذي أنجبك.. وعلى الدين الذي رباك..

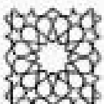
وسلام على رفاقك الأبطال الممجدين، والشهداء الظافرين.

خالد محمد خالد

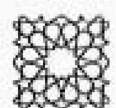


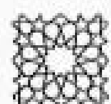
الفصل الأول

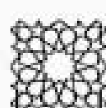


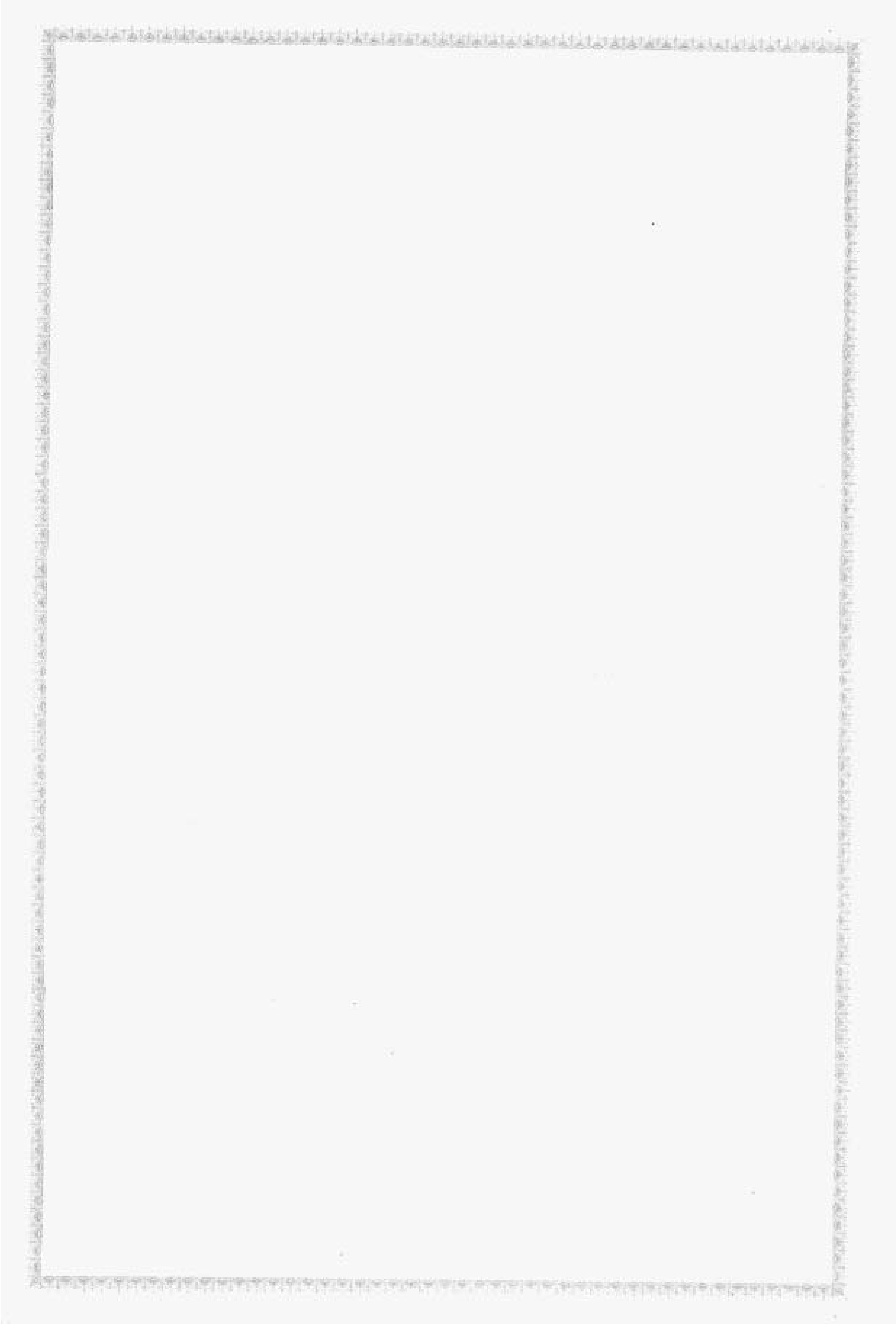


للتضحيـــــــة خلقـــــــوا ..









كانت أحب أهلها إلى أبيها، وأقربهم مـن قلبـه الـودود وكـان ﷺ يشَم فيها عبير ذكريات عزيزة وغالية.

ذكريات السنوات الجليلة التي قضاها في صحبة أمها "خديجة"..

كما كان يتهلل غبطة ورضا ، وهــو يـرى فيـها أم ذريتـه المباركـة وسبطه العظيم ..

إنها "فاطمة"..

بورك الاسم، وبوركت صاحبته !!

وقد ذهبت يوما إلى أبيها الرسول ﷺ تســأله أن يدبـر لـها خادمـا يعينها على عمل البيت الذى أمجل يديها ، وأضنى عافيتها ، ومسها منه اللغوب.

وكان زوجها العظيم "على بن أبي طالب" رضى الله عنه هــو الـذى نصحها بهذا حين علم بمقدم بعض السبى إلــى المدينـة، وحيـن رآهـا تكاد تسقط إعياء تحت وطأة العمل الدائب في خدمة البيت والأولاد.

وفي دار النبوة ـ وما كانت دار النبوة تلك سوى حجــرة متواضعـة في ناحية من المسجد ـ استقبلها الأب والرسول صلى الله عليه وسلم!

ـ مرحبا، يا فاطمة..

وجلست "فاطمة" تتحدث مع أبيها، وبين الحين والحين تحاول الاستنجاد بشجاعتها كى تلقى بين يديه الرغبة التي حفزتها إلى المجىء.

لكن الحياء يغلب فيها الشجاعة؛ فتكظم الرغبة ولا تبوح..

ثم تستمر فى حديث آخر أشبه ما يكون بالنجوى مع أكرم والد، وأكرم رسول ﷺ.!!

وأخيرا تستأذن في العودة إلى دارها، فيأذن لها أبوها الرسول صلى الله عليه وسلم، ويودعها بنظرات مشفقة، وحانية..

ويسألها الزوج وقد عادت إليه:

- ماذا قال لك رسول الله ﷺ.؟

وتجيبه "فاطمة":

- لقد استحييت أن أسأله!!

لكن "عليا" يعلم ما تنوء به من أعباء، فيصحبها من فوره إلى الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام، حيث ينهى إليه رغبتها وحاجتها.

ويرنو بصر "النبى" ﷺ إلى بعيد.. ويلتمع وجهه المضىء تحت غلالة شفافة من الشجن، والأسى، والحنان..

إنه ليعرف - مثلما يعرفان - ما تعانيه ابنته الحبيبة من مشقة وشظف، وهى التى ولدت فى أحضان نعيم جزل كانت تذخر به دار أمها "خديجة" ذات المجد الوارف والثراء المفيض..!!

لكنها اليوم ابنة "رسول" جاء الحياة ليعطى، لا ليأخذ..

رسول قرر أن يكون حظه وحظ أهله من الدنيا كزاد الراكب، بل

دون زاد الراكب بكثير..!!

وإن "فاطمة الزهراء" رضى الله عنها لتعلم هذا المنهج وتلتزمه.

ولقد رضيت ـ قريرة العين ـ أن يكون كل جـهازها الـذى زفت بـه ليلة عرسها أعواداً من جريد صنع منها سرير واطـئ، ووسـادة حشـوها ليف.. وسقاءين للماء.. ورحاءين للطحن.. وقارورتى طيب.. ومنخـلا.. ومنشفة.. وقدحا..!

وهي إذ تجىء أبيها اليوم على استحياء، فى صحبة زوجها الفقـير من عرض الدنيا ورغد العيش، فإنها لا تطلب مـا ينأى بـها عـن منـهج الرسول ﷺ فى الزهد وفى الورع.. إنها لا تريد أكثر من خـادم يحمـل عنها بعض العبء الذى يثقل كاهلها..!

ولكن، لا فمادامت الأقدار قد أسعدتها وشرفتها بأن تكـون "بنـت الرسـول ﷺ" فإنـها فـى نفـس الوقـت، ولنفـس السـبب، تدعوهـا لأن تتحمل من التضحية أقصى ما يستطيع الناس.

ويحتمل معها ذلك القدر وأكثر، زوجها وبنوها..!!

وإن مشقة البيت، وشظف العيش لأهون من تلك التضحيـات التـي سيقدر لآل هذا البيت أن يحملوها.!!

من أجل هذا، لم يجد الرسـول ﷺ فـي وسـعه أن يجيـب "فاطمـة وعليا" إلى رغبتهما المتواضعة والمشروعة.

ومن ثم غطى وجه ابنته الحبيبـة بنظراتـه الآسـية والحانيـة، وقـال يخاطبها:

"لا يا فاطمة.. لا أعطيك، وأدع فقراء المسلمين..!!".

ثم اقترب منهما، وطوقهما بذراعيه، وقال لهما، وعلى فمه ابتسـامة

كضوء الفجر:

"ألا أدلكما على خير من خادم..؟

إذا أويتما إلى مضجعكما؛ فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين.. واحمداه ثلاثاً وثلاثين..وكبراه أربعاً وثلاثين.. فذلك خير لكما من خادم"..!!

إذا نحن جاوزنا شكل هذه الواقعة إلى جوهرها، أدركنا المغزى العظيم لها، وأدركنا كذلك، الدور المجيد والوحيد الذي كان على أهل بيت النبى ﷺ أن يقوموا به غير منتظرين أجراً، ولا متعللين براحة..!!!

وإذا كانت هذه الواقعة ترينا كيف كان الرسول ﷺ يزكى هذا المبدأ في أفئدة آل بيته فإنها لم تكن الواقعة الوحيدة فى هذا المجال.. بل هى واحدة من وقائع كُثُرٍ كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصوغ منها أسلوبه فى إعداد أهل بيته رلدورهم العظيم، هذا الدور الذي ستكون التضحية لُحمته وسُداه..

ففي يوم آخر.. وكان يوم فتح مكة ذهب "على" رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ يسأله أن يمنحه حجابة البيت الحرام.

وكانت الحجابة وظيفة تتوارثها من قديم إحدى عائلات قريش.

ولم يكن ابن عم الرسول ﷺ حين تمناها، يطمح إلى مغنم أو عرض من أعراض الدنيا الزائلة.

إنما كان يرجو أن يذهب بشرف حمل مفاتيح بيت الله الحرام. هنالك تقدم من الرسول ﷺ الذي كان جالسا وسط أصحابه، تقدم ومفاتيح المسجد والكعبة في يمينه وقال:

"يا رسول الله !! اجعل لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك".

وابتسم الرسول ﷺ ابتسامته العذبة المعهودة في مثل هذه المواقف، وبسط يمينه المباركة نحو ابن عمه، آخذا منه المفاتيح، ثم نادى، وبصره يجول بين الناس:

"أين عثمان ابن طلحة"..؟؟

وكان "عثمان بن طلحة" هو القائم يومها بوظيفة الحجابة هذه..

ونهض "ابن طلحة" قائما، يلبي نداء رسول الله ﷺ وألقى الرسول بالمفاتيح إليه، وقال:

"هاك مفتاحك يا عثمان.. اليوم يوم بر ووفاء"..

ثم التفت إلى ابن عمه "علي" وقال:

"إنما أعطيكم ما تُرزأون، لا ما تَرزأون"..!!

ياله من درس.. ويالها من نبوءة..!!

أجل.. هذا دور آل محمد ﷺ في الحياة.. التضحية بكل ما تتطلبه من شظف، وتبتل، واستغناء..

لا شيء دون التضحية، ولا شيء سواها..

أما الدنيا بكل زينتها وزخرفها وإغرائها؛ فهي أهون على الله من أن يجعلها لهم مثوبة وأجرا..!!

إن عليهم في هذه الحياة أن يقوموا بدور واحد. عليهم أن يقضوا أعمارهم كلها فوق "منصة الأستاذية" ليعلموا الناس فنا واحداً.. هو فن التضحية والفداء، أروع وأصدق ما تكون التضحية، ويكون الفداء..!!!

على هـذا النسـق الرفيـع البـاهر ربـى الرسـول الكريـم ﷺ "عليـا وفاطمة" الأبوين الذيـن سيجيء مـن أصلابـهما، الحسـن والحسـين، وزينب، وبقية الأبناء والحفدة المباركين، الذين سنطالع على صفحات هذا الكتاب جلال ما بذلوا من تضحية.. وروعة ما صنعوا من بطولة..!!

لقد رباهما كما رأينا على التحمل والتضحية.. وصحيـح أنـه ربـى جميع أصحابه على ذلك.. بيد أنـه كـان يطـالب ذويـه وأهـل بيتـه بـأن يبلغوا في هذا المجال أرفع مستويات التفوق والنبوغ.

فالقدوة التي يجب على "فاطمة" أن تعطيها الآخرين بوصفها بنـت رسول الله ﷺ..

والقدوة التى يجب على "على" أن يمنحها الآخرين بوصفه ابن عم الرسول ﷺ، وتلميذه الأول، وزوج ابنته، ووالد أحفاده..

هذه القدوة المنتظرة منهما تختلف في نوعها وفي درجتها.. وتتفوق في نوعها، وفي درجتها..

ولئن كانت القدوة في عرف البشر "تجسـيدا" للمثـل العليـا التـي أبدعها الإنسان واكتشفها؛ فإنها كما علم الرسول ﷺ آل بيته وأصحابه "تجسيد" للربانية التي يريدها الله.!!

وها هو ذا القرءان العظيم يهتف فيهم:

﴿كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾.

فالربانية وحدهـا، هـي التـى تضفـي علـى العظمـة الإنسـانية رواء الصدق، والإخلاص، والنسك..

وهي التى تجعل من التضحيات رشدا ورضوانا..

ولقد كانت القدوة التـى تركـها "علـى وفاطمـة" والتـى سـيتركها

"بنوهما" من بعدهما رائعة الاتساق مع هذه الغاية الفريدة، وذلك المستوى البعيد.

لقد كرسوا حياتهم للحق، أعظم ما يكون التكريس.. وضحوا في سبيله، أصدق ما تكون التضحية..

وإذا كان أكثر ما يجبن الناس عن التضحية، هو حب المال وحب الحياة.. فإن آل بيت الرسول ﷺ.. هؤلاء البررة الأطهار، قد عرفوا كيف يستهينون بالمال، ويستهينون بالحياة..!!

لقد رأينا، كيف كان "على وفاطمة" "وأبناؤهما" يعيشون في خصاصة وشظف..

ألا فلنعلم أن هذه الخصاصة لم تكن عليهم ضربة لازب.. بل كانت من صنع أيديهم واختيارهم..

فنصيب "على" من الفيء ومن الغنائم كان عظيما.. لكنه ما كان يبقى عليه، ولا يدخر منه.

إنما كان يأخذ منه مثل حسو الطائر.. ثم يهب بقيته فى سماح وغبطة مسكينا، ويتيما، وأسيرا...!!

ولطالما كان يعمد إلى الطعام المقل الذى يحتاجه لغذائهما طفلاه "الحسن والحسين" فيتصدق به على شيخ هرم، أو أرملة، أو يتيم..

وستكون هذه طريقه أولاده وشيمتهم حين يكبرون..

فبعد قليل، سنرى "الحسن" وقد كثر راتبه وعطاؤه، أيام "معاوية" يقاسم الله أمواله..!! وكذلك سنرى "الحسين".. سنراهما ينفقان عطاءهما في سبيل الخير، في سخاوة نفس نادرة المثال.

فإذا دُعُوا إلى التضحيــة بالحيـاة بعـد التضحيــة بالمـال، جـادوا بأنفسهم، وباعوها صفقة رابحة وغالية ومتواضعة لله رب العالمين..!!

إنهم للتضحية خلقوا.. وللفداء عاشوا..

ولقد يخدعنا الفهم الزائغ لموقفين وقفهما "علــى وفاطمــة" فـنرى فيهما جنوحا عن المبدأ العظيم الذي قامت عليه حياتهما.

هذان الموقفان هما:

- موقف "السيدة فاطمة" من حقها في ميراث النبي ﷺ.
- وموقف "الإمام على" من بيعة الصديق أبى بكر.

إن النظرة السريعة المتعجلة لهذين الموقفين، توقع أصحابهما فــي وهم كبير، فيحسبونها عرضا من أعراض التطلع إلــى الدنيـا والحفـاوة بها.

فأما عن الموقف الأول، فلم يكن لدى النبي ﷺ ما يورث.

لقد كان يمضى الشهر والشهران والثلاثة، مـا يوقـد فـى بيتـه نـار تطهو طعاما..!!

ولقد لقي ربه، ودرعه مرهونة في حفنات شعير..!!

كل ما فى الأمر، أن المسلمين في بعض غزواتهم أصابوا أرضا

أمر رسول الله ﷺ أن تبقى في أيدى أصحابها. على أن ينال كل ذى حق فيها نصيبه من ريعها.

وأفاء الله على رسوله من تلك الأرض - فــي خيـبر، وفـدك - قطعـة صغيرة. كان يُحمَل ريعها إلى الرسول ﷺ فيستعين به على معيشــة بيتـه وأهله، وأبناء السبيل.

ولما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، حول خليفته الصديق ذلك الريع إلى بيت مال المسلمين.

وطالبت به السيدة فاطمة بوصفها وارثة أبيها، وغاضبت الخليفة من أجل صنيعه ذاك..

بيد أنها لم تكد تعلم من أبى بكر، ومن غير أبى بكر من الأصحاب أن رسول الله ﷺ كان قد أعلن فى حياته أن الأنبياء لا يورثون، حتى فاءت إلى حكم الشرع وأذعنت لقرار الرسول ﷺ، وتقبلت في رضا وتسليم حرمانها من ذلك الريع الذى كانت في أشد الحاجة إليه.

وهكذا أضافت إلى تضحياتها تضحية جديدة، وفاء منها وولاء للحق الذي قامت عليه حياتها..!!

وأما موقف "الإمام على" من بيعة "الصديق أبى بكر" رضى الله عنهما، فما كان امتناعه عن البيعة أول أمرها تحديا منه للمبادئ التي قامت عليها حياته الورعة، ولا نكوصا عن التضحية من أجلها.

بل كان في التحليل النهائى له، صورة صادقة لاستقامة النهج في ضمير "الإمام" وسلوكه.!!

لقد كان على اقتناع وطيد بأن خير الإسلام في أن يظل لواؤه بيد واحد من بيت النبوة، لا سيما فى الفترة التالية لوفاة الرسول ﷺ حيث يخشى أن تتحرك النزعات القبلية في أحشاء المجتمع من جديد، متخذه من منصب الخلافة مجال تنافسها - الأمر الذي حدث فعلا يوم السقيفة، إذ رأى بعض زعماء الأنصار أنهم أولى بالخلافة.. ورأى المهاجرون أنهم أحق بها وأجدر.. وكاد الخلاف يتفاقم لولا أن بسط

الله يده فوق عباده، وتحرك الضمير الدينيى الرشيد الذي غرسه الرسول ﷺ في أفئدة أصحابه؛ فذاب الخلاف فور نشوئه في حرارة الإيمان وصدق اليقين..!!

ولم يكن "على" فى اقتناعه بأولوية بيت النبوة في الخلافة يبتغي لآل البيت امتياز خاصًا.

بل كان يرى ذلك امتدادًا لواجبهم نحو الدين الذى أكرمهم الله به.

من أجل ذلك، نراه يجعل هذه الأولوية مشروطة بأن يكون فى آل البيت من يؤهله صلاحه وورعُه واقتدارُه لحمل تبعات المنصب الجليل.

ولقد صور اقتناعه هذا فى وضوح كامل من خلال حواره مع الرَّاشدَيْن "أبى بكر و عمر" فقال:

"إنكم تدفعون آل محمد ﷺ عن مُقامه ومُقامهم فى الناس، وتُنكرون عليهم حقهم..

أما والله، لنحن أحق بالأمر؛ مادام فينا القارئ لكتاب الله.. الفقيه فى دين الله..

العالم بسنن رسول الله ﷺ .. المضطلعُ بأمر الرَّعيَّة.. القاسِمُ بينهم بالسَّويَّة..

وفى كلماته للصدِّيق حين وقف فيما بعد يُبايعه.

"يا أبا بكر..

إنه لم يمنعنا من أن نُبايعك إنكارُ لفضلك، ولا نفاسةُ عليك لخير

ساقه الله إليك.. إنما كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا أخذتموه"[١]

على أنه ـ كرَّم الله وجهه ـ سرعان ما انضمَّ لإجماع الصحابة ويـايع "الصدِّيق" بيعة صِدق ويقين.

وسرعان ما أثبت "الصدِّيق" ومن بعده "الفاروق" أنهما خير خلَف، لأكرم سلَف..

ووقف "علىٌ" مع كلا الخليفتين يُبثهما الـرأى السـديد، والنُصح الأمين "مما جعل أمير المؤمنين "عمر" يُشيد بسداد رأيه فيقول!

"لولا عَلىٌ، لهلك عمر"..!!

هو إذن لم يكن ينشد الخلافة لدنيا يصيبـــها، ولـو أرادهـا لذلـك لطالتْها فى يُسرٍ يداهُ.. فلطالما حثَّه أبو سفيان يومئـذ، بـل حرَّضـه إثـر مبايعة الناس أبا بكر على أن يتشبث بحقه فى الخلافـة، قـائلا لـه: "إن شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجلاً، ولأسُدَّنها عليهم من أقطارها"..

فما كان جواب الإمام العظيم إلا أن قال له:

"يا أبا حنْظلة!! إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا، ولا من شيَمنا.. ولقد سدَدْتُ دونها بابًا، وطويْتُ عنها كَشْحًا"..!!

ولقد جاءته الخلافة فيما بعد، فماذا كانت له.. وماذا كان لها..؟؟

أما هى، فكانت له عبئًا فادحًا، ورُزءًا رهيبًا..

وأما هو؛ فكان لها المؤمن الذى لا يصرفه عــن مسئوليات إيمانـه شىء، والفدائىّ الذى لا تصرفه عن حـــب التضحيـة رغبـة.. ولا تُجفِلـه رهبة..!! لقد كان قادرًا ـ لو أراد ـ أن يطوى بيمينه مائة حاكم من أمثال معاوية.. وأن يطوى بيمينه مائة شامٍ، لا شامًا واحدة..!!

---

[١] راجع كتابنا "خلفاء الرسول".

أجل، بقليل من الدهاء، وقليل من المسايرة، كان قادراً على دَحْض التمرد كله.

لكنَّ صرامته فى احترام مبادئه وتطبيقها جعلته يؤثرُ المركب الصعب دومًا.

كان مؤمنًا بأن الحق يجب أن يمضى فى طريقه دون مُراوغةٍ، أو مُسايرة، أو دهاء.

وحين أشاروا عليه أن يستبقى معاوية بعض الوقت واليا على الشام ريثما تقرُ وتهدأ الفتنة، صاح فى مشيريه قائلاً:

"أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور..؟ لا والله، لن يرانى الله مُتَّخِذَ المُضلِّين عَضُدا"..!!

هذا، هو الرجل الذى ربَّى "الحسين، والحسن" اللذين خاضا معه، وخاضا من بعده معارك الحق، فى سبيل أن يبقى الدين دينًا..

هذا هو الأب الذى أنجب أبطالَ كَربلاء، الذين سنرى الآن من بُطولتهم عجبًا..

وهذا هو بيت آل النبى ﷺ .. بيت القرابين والشهداء!!

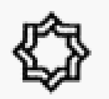
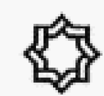
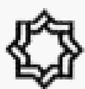
لقد نزل الوحى يومًا بهذه الآية الكريمة:

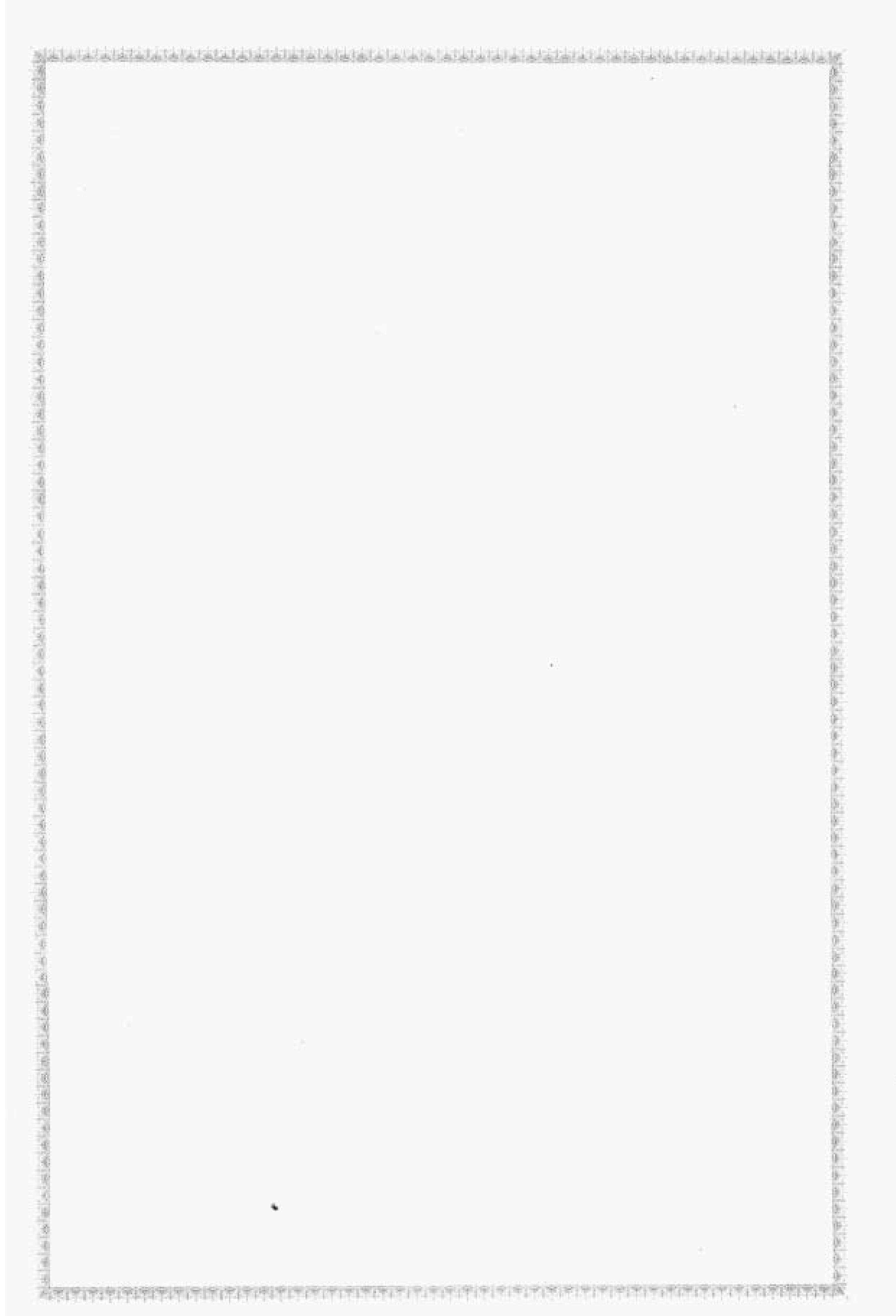
﴿إنما يريدُ الله ليذهب عنكمُ الرجسَ أهل البيت، ويُطهِّركم تَطهيراً﴾ ومن فوره، دعا الرسول ﷺ إليه "عليًا وفاطمة، والحسن، والحسين".

حيث دثَّرهم برادئه، وضمَّهم بحنانه، وراح يقول فى حبور عظيم: "هؤلاء أهل بيتى"..

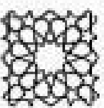
أفكانت الدنيا بكل إغرائها وبَذَخِها وغرورها، هى الرِّجس الذى

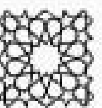
أذهبه الله عن آل هذا البيت الكريـم، فحـال بينـهم وبينـها ببحـارٍ مـن دمائهم الزكية، وجبال من تضحياتهم الشاهقة الفتيَّة..؟؟!

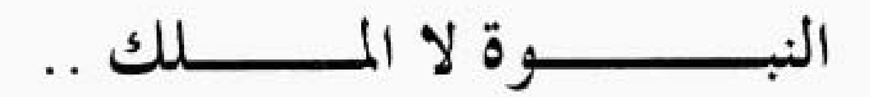
  



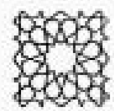
الفصل الثانى

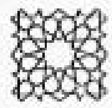


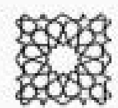




النبـــوة لا المـــلك ..









.. والآن نقترب من جوهر القضية التى نذر "الإمام على" لها حياته حتى قضى فى سبيلها شهيداً.

والتى وهبها الحياة كذلك، أبناؤه من بعده، حتى قضَوا فى سبيلها شُهداء، لا سيما ذلك البطل الممجَّد الشهيد "أبو عبد الله الحسين بن على"..

لقد كشف تمرد معاوية، ورفضه مبايعة "الإمام على" عن جوهر النضال الذى تحتَّم على الإمام أن ينهض بأعبائه.

وكان السؤال الذى يفرض نفسه يومئذ على المجتمع الإسلامى كله، هو ذا:

ـ لمن يجب أن تكون الغلبة ويكون البقاء..؟

للنبوة بكل هَدْيها، وورعها، وجلالها الذى سوَّاه فى أحسن تقويم وَحْيُ الله ومنهج رسوله ﷺ ..

أم للمُلك بكل مباذخه ومباذله وتسلطه الذى باتت ترهص به على نطاق واسع أطماع الأمويين..؟؟

لقد كان أخشى ما يخشاهُ "الإمام" أن تقوم فى الإسلام ـ دولة الطُّلقاء..!!

والطُلقاءُ، هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة راغبين أو راهبين ويعض هؤلاء، حَسُن إسلامه وصفا يقينه..

ويعضهم بقى تحت جوانحه إلى الجاهلية حَنين..

وكانت الدولة المسلمة يومذاك، وبعد أن فُتحت الدنيا لها وعليها بحاجة ماسة إلى حاكم من ذلك الطراز الربَّانى.. بحاجة إلى واحد من أولئك الرجال الذين يمثلون فضائل أيام الوحى وعصر النبوة..

ولم يكن "الإمام على" يومئذ الرجل الأفضل والأمْثَل فحسب، بل كان الرجل الأوحد الذى تتمثل فيه وتهيب به كل حاجات دينه وأمته.

وكان الخروج عليه يومذاك يشكل خروجًا أكيدًا على عصر النبوة بكل ما يمثله من هُدى وعدالة ونور.

ولقد كانت بصيرة الإمام من النفاذ والصدق بحيث أبصرت أبعاد المصير إذا استقرَّ السلطان فى أيدى الأمويين فلقد يهون الأمر، لو بدأ النكوص بمعاوية، وانتهى به.. غير أن "الإمام" كان يرى ببصيرته الصادقة أن الانحراف إذا بدأ، فلن يُؤذن بانتهاء..

وكان يرى أن الأمويين إذا أفلحوا فى تثبيت ملكهم المنشود، فسيتحول التراث الجليل الذى تركه الرسول ﷺ إلى مُلك عضوضٍ ودنيا جامحة..

ومن ثمّ صار دَحْض هذه المحاولة التعسة واجب المؤمنين كافّة.

وهذه كلمات أبى سفيان التى يجترّ بها نوايا أسرته وقومه، لا تدع مجالاً للشك فى أطماعهم وما يبتغون..

فهو يوصى أهله وذويه قائلاً: "لقد صار الأمر إليكم فلا تدعوه يُفلت، وتلقّفوه كالكُرة.. فإنما هو الملك ولا أدرى ما جنّةٌ ولا نار"..!!

وهو يمـرّ بقبر "حمزة" عـم الرسول ﷺ فيستعيد ذكرى الأيام الماضية ويقول: يا أبا عمارة إن الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيوف قد صار إلى غلمان بنى أمية"..!!

وهو حتى من قديم، لم يكن يرى فى الإسلام إلا مُلكًا.. فيوم فتح مكة، وقد صحبه العباس عم النبى ﷺ إلى الرسول ليُسلم، وينجو بحياته، نظر إلى الكتائب اللَّجبة العارمة تحمل رايات الإسلام، فإذا به ينظر إلى "العباس" ويقول: "لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا"..

فيجيبه "العباس" رضى الله عنه:

"يا أبا سفيان.. إنها النبوة، لا الملك"..

أجل.. هذا هو الفارق الكبير بين تفكير بنى هاشم وتفكير بنى أمية.. فبنو هاشم يرون الدين على حقيقته. نُبوَّة، وهُدى، نورا..

وبنو أمية يرونه من خلال أمانيِّهم وأطماعهم مُلكًا، وتسلُّطًا، وسيادة..!!

وإن "الإمام عليًا" لم يُخدع إذن عن جوهر الموقف الذى اتخذه معاوية حين رفض بيعة الإمام، ولم يُخدع عن عواقب هذا الموقف إذا تركه المسلمون يستشرى ويتفاقم.

وإذا كانت مقاومة هذا الجنوح الخطير واجب المؤمنين.. فمَن أوْلى المؤمنين بهذا..؟

إنهم آل بيت النبى ﷺ.. أهل التقوى، وأهل التضحية..!!

وهكذا شرع موكب التضحيات فى مَسيرة عالية، كلها قمم ومُرتفعات.. مُستهلاً بأشرف تلكم القمم وأعلاها.. حياة الإمام الرشيد الشهيد "على بن أبى طالب" رضى الله عنه وأرضاه..

ثم بحياة الشهيد الممجَّد والعظيم "أبى عبد الله الحسين بن على" ومعه عشرات من إخوانه، وأهل بيته وصحبه، فى يوم يجعل الوِلْدان شيبًا.!!

* * *

وهكذا، لم تكن "كَربلاء" مَلْحمة ذات فصل واحد، بدأ وانتهى يوم العاشر من المحرم..

بل كانت ذات فصول كثيرة بدأت قبل كربلاء بسنوات طوال.. واستمرت بعد كربلاء دهرًا طويلا..!!

أجَل.. لقد بدأت ملحمة كربلاء ومأساتها، يوم تمَّت خُدعة التحكيم، وحين وقع التمرد الرهيب والفتنة فى صفوف أتباع الإمام، ثم حين خلا الجوّ لراية الأمويين داخل الشام، وخارج الشام..!!

ولكأنَّما كان "الإمام على" يرى ببصيرته الثاقبة كل ذلك المصير..!!

فذات يوم أثناء مسيره مع جيشه إلى "صِفِّين" بلغ به السير هذه الرقعة من الأرض، فتمهَّل فى سيره ثم وقف يتملَّى مشهد الفضاء الرهيب، وسالت عبراته من مآقيه، واقترب منه أصحابه صامتين واجمين، لا يدرون ماذا أسال من مُقْلتى الأسد الدموع..!!

ثم سألهم ويُمناه ممتدةُ صوب تلك الأرض التى تعلقت بها عيناه:

ـ ما اسم هذا المكان؟

قالوا: كربلاء.

قال: "هُنا محَطّ رحالهم ومُهْراق دمائهم"..!!

واستأنف سيره مع المقادير..

تُرى مَن كان يعنــى.. ومَـن كـان ينْعـى..؟؟ أكـان يعنـى قُـرّة عينـه "الحسين" ومَن معه من إخوة له وأبناء..؟؟

أكـان يعنـى أولئـك الأبطـال الذيـن ستشـهد هـذه الأرض ذاتـها استشهادهم الرهيب والمَهيب بعد عشرين عامًا لا غير من هـذه النبـوءة الصادقة..؟

رُبما..

وربما لم يكن إلهامُه ولم تكن بصيرته يومئذ معلَّقَين بواحـد بذاتـه من أهل بيته المباركين.

فهو على أية حال يدرك أن المعركة التى بدأها من أجل الحق لـن تنتهى..

ويدرك أنه لن يصبر أحدُ من بعده علـى لأوائِـها وضراوتـها مثلمـا سيصبر أبناؤه الذين ورثوا البطولة كابرًا عن كابر..!

وحين يحتدم فى البصائر النقيَّـة ولاؤهـا لحق مقـدس، أو لمبـدأ جليلٍ، فإنَّ هذا الاحتدام يتلقى فى لحظة إشراق روحىٍّ مددًا من الرؤيـة غير منظور، يكشف الغيـب ويجـذب إلـى دائـرة الاستشـراف أحـداث الزمن البعيد..!!

ولعلَّ شيئًا كهذا، حدث ذلك اليوم، فرأى الإمامُ التقىَّ النَّقىَّ بـلاءَ أبنائه وحفدتــه، رأى بلاءهـم العظيـم فـى سـبيل القضيـة التـى حمـل لواءها، ورأى "محطَّ رحالهم، ومُهراق دمائهم"..!

* * *

القضية إذن، كانت كما قلنا، قضية "النبوة" لا "الملك"..

النبوة بكل تألُّقاتها الورِعَـة وموازينـها العادلـة.. لا الملـك الـذى

يريد نفر من الأمويين أن يردّوا به وثنية الجاهلية فى أثواب تنكُّرية..!!

والذين يدرسون معارك "الجمل، وصفّين، وكَربَلاء" خارج هذه الدائرة، لا يأمنون عَثار تفكيرهم، وزَيْغ أحكامهم.

ولقد رأينا كثيرين ممن تحدثوا عن "كربلاء" يُحمّلون "الحسين" مسئولية مصيره، ومصير الذين خرجوا معه..!!

و "الحسين" رضى الله تعالى عنه، يتحمل فى شجاعة وغبطة مسئولية ذلك المصير، ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده هؤلاء..

فهم يرون أنه خرج تلبية لدعوة ثوار الكوفة إياه، باعتبار هذه الدعوة فرصة رآها سانحةً لاسترداد الخلافة من بيت معاوية إلى بيت الإمام..

وهم يلومونه، أو يكادون؛ لأنه لم يُصغِ لِنصح الناصحين من عشيرته الأقربين؛ كى يبقى مكانه فى البلد الحرام "مكة" نافضًا يديه من مشاكل الموقف الكالح الذى نتج عن استخلاف يزيد..

فهل كان ذلك كذلك..؟؟

أبدًا..

وإن الأمر لمختلفٌ جداً..

فالقضية فى ضمير "الحسين" لم تكن قضية فرصة سنحتْ.. ولا هى قضية حق شخصىّ فى الخلافة يبتغى استرداده.. ولا هى من القضايا التى يكون للإنسان الرشيد حق التخلى عنها..!

القضية فى ضمير التقىّ الشُّجاع، كانت قضية دين.. ويستوى عنده تخلّيه عن هذه القضية، وتخليه عن هذا الدين..!

صحيح أن "الشكل الخارجى" للقضية تمثّل يومها فى استخلاف

يزيد.. لكنَّ "جوهرها" الصحيح كان واضحًا أمام وعى "الحسين" ورُشْده ونور بصيرته، تمامًا كما كان واضحًا من قبل أمام وعى أبيه الإمام، وأمام رُشده وبصيرته..!!

واستخلافُ يزيد على هَوانِه، لا ينفى عن القضية موضوعيتها العميقة، ولا يقلل من تبعة النهوض بها، بل هو يزيد من إلحاح هذه التبعات.

فـ: "يزيد" هذا، لا يملك ذرة من الصلاحية التى تؤهِّله لأن يجلس من الأمة المسلمة حيث كان من قبل "أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى"..!!

لقد كانت خلافةُ واحد من طرازه أدهى كارثة تنزل بالدولة وبالأمة.

لا سيما، وهو يُستخلف فى عصر لا تفصله عن عصر النبوة والوحى سوى سنوات معدودات.. وفى جيل لا يزال يحيا فيه رجال شامخون أبرار من أصحاب رسول الله ﷺ أمثال "عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، والحسن، والحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وأبى الدَّرداء، وقيس بن سعد بن عبادة"..!!

ولئن كان هناك من خيار الصحابة والمسلمين من سكَن لهذا الوضع الأليم بعد وقوعه، فإنهم لم يفعلوا عن رضًا واقتناع، بل عن رغبة فى تجنيب المسلمين مزيدًا من الحروب والآلام والدماء - الأمر الذى لم يتردَّد "الحسن" نفسه عن النهوض به - من قبل - حين تنازل عن حقه فى الخلافة لمعاوية، على النحو الذى سنراه عما قريب..

ولو أن معاوية وفَّى بالعهد الذى أبرمه مع "الحسين" أمام المسلمين كافَّة، فترك الأمر من بعده لمشورة الناس واختيار الأمَّة؛

لتغير موقف "الحسن" ولتغير بالتالى مجرى الأحداث.

إننا الآن نستطيع أن نبصر عدالة القضية التى ناضل دونها الإمام وأبناؤه، أكثر مما كان مُتاحًا لمعاصريها.. فهم كانوا ينظرون إليها من خلال حدَسهم وتقديرهم لاحتمالات المستقبل حين يستقر الأمر لبيت أبى سفيان، وحين تنتهى إلى أيدى أبنائه مصاير الإسلام والمسلمين.

أما نحن اليوم، فالأمر بالنسبة لنا ليس أمر حدْس أو احتمال..

إنَّ ما كان حَدْسًا بالأمس، قد صار حقيقة..

وما كان احتمالاً وظنًا، أصبح واقعًا وتاريخًا..

فها هو ذا معاوية، لا يكتفى باغتصابه الخلافة، ثم لا يرغب وهو على وَشْك لقاء ربه فى التكفير عن خطئه، تاركًا أمر المسلمين للمسلمين.. بل يُمعن فى تحويل الإسلام إلى مُلك عضوض وإلى مزرعة أموية..!!

فيأخذ البيعة ليزيد كولى عهد له.. يأخذها بالذهب، وبالسيف..

ثم ها هو يزيد يتربع على عرش أبيه بعد وفاته، فيهمل أمر المسلمين، ويعكف على اللهو بفُهوده وقُروده حتى يلقَّب بـ "يزيد القرود"..!!

ثم يسلط من قواده ورجاله من يُنزلون بالعباد والبلاد من الهول ما يخجل الشيطان نفسه من اقترافه..!!

فابن زياد، فى الكوفة والبصرة، يحزّ رأس كل من تُسوِّل له نفسه أن يقول: لِمَ..؟

ثم يقتل أبناء الرسول ﷺ وأحفاده وآل بيته فى كربلاء قتلاً تناهى فى البشاعة والرِّجْس..

ومسلم بن عقبة، مبعوث يزيد إلى المدينة المنورة دار الهجرة ووطن الأنصار وعاصمة الإسلام، يصنع بها وبأهلها من الوحشية والجريمة ما يتعاظم كل وصف..

وحتى مكة بمسجدها الحرام، يُرسل إليها "يزيد القرود" مَن يستبيح، ويستبح مسجدها الحرام.

ثم حين يختفى بيت أبى سفيان بموت يزيد، ويسطو على الخلافة بيت مروان، وهو شعبة أخرى، وامتداد آخر للأمويين يظهر الحجَّاج لينشر الخراب والدمار والقتل فى كل مكان باسم الأمويين، وفى سبيل دعْم ملكهم ووثنيتهم..

هذه الأهوال كلها، والتى نراها نحن اليوم بعد وقوعها، كان الإمام علىّ يُحسُّها ببصريته قبل وقوعها..

كان بإلهامه الصادق يرى كل ذلك المصير، فقام قومته ليمنع الكارثة قبل نزولها..!!

وقام من بعده ابنه العظيم "الحسين" ليمنع امتداد الكارثة واستمرارها..!!

وهكذا نرى أن معركتهم الجليلة الباسلة لم تكن معركة حق شخصى فى الخلافة..

ولا معركة ثأر جاهلى قديم..

* * *

إن الذى أدركه الإمام.. قبل وقوعه، فنهض يتحاماه، كان يدركه معه أولئك الذين وقفوا فى صفه، وصمدوا معه إلى النهاية فى إخلاص مَكين.

أدركه الصحابى الجليل "عمَّار بن ياسر" الذى قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم:

"اهتدوا بِهدْى عمَّار"..

والذى قال عنه أيضًا: "تَقتل عمارًا الفِئة الباغية"..

والذى أجمع الصحابة بلا استثناء، وفيهم معاوية ذاته على فضله وورعِه وصدق نهجه وعظمة روحه.

أدرك "عمَّار" نفس المصير وآمن بذات القضية، فصمَّم على الخروج للقتال مع "الإمام على".. مع أنه يؤمئذ كان قد جاوز التسعين من عمره.

إنه لم يجد عملاً أفضل من ذلك العمل، يختم به حياته المجيدة، فراح يصول ويُقاتل، مُلخِّصًا إيمانه بقداسة القضية التى رفع "الإمام" لواءها فى هذه الكلمات المضيئة الثائرة:-

"أيها الناس!!

سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان، والله ما قصْدهم الأخذ بثأره، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرَّغون فيه من شهواتهم ودنياهم..

وما كان لهؤلاء سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة المسلمين أو الولاية عليهم..

ألا إنهم ليخادعون بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان..

وما يريدون إلا أن يكونوا جبابرة وملوكًا..!!

والذى نفسى بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ وهأنذا أقاتل بها اليوم..!!

والذى نفسى بيده، لو هَزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر، ما وهَن يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل"..!!

إنها قضية تفوقتْ بعدالتها وبقداستها حتى على النصر ذاته..!

فلم يعد النصر مزيّة لها.. كما لن تكون الهزيمة إزْراءً بها.!

هكذا عاشت فى ضمائر أهلها وشهدائها.. كما عبَّر وصوَّر.. عمَّار بن ياسر.. فى كلماته السالفة:

"والذى نفسى بيده، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر، ما وهن يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل"..!!

* * *

وإذا كان للحديث بقيّة تزيدنا إدراكًا لقداسة القضية التى ذهب "الحسين" شهيدًا لها، كما ذهب أبوه "الإمام" من قبل شهيدها.. وكما ذهبت معهما ثُلَّةُ مباركة طاهرة من صفوة المؤمنين والأصحاب ـ فلتكن هذه البقية شهادةَ شاهدٍ من أهلها..!!

وهذا الشاهد هو: "معاوية بن يزيد" ثالث خلفاء بنى أمية.

فقبل أن يموت ـ يزيد ـ فى العام الرابع والستين للهجرة، خلعَ الخلافة، أو بتعبير أصحّ خلع المُلك على أكبر أبنائه ـ معاوية ـ الذى عُرف باسم "معاوية الثانى".

وكان "معاوية" هذا، شابًا تقيًا، ورعًا، عابدًا..

وسبحان من يُخرج الحىّ من الميّت، والهُدى من الضلال.!

وعلى الرغم من أنه تسلَّم الملك شابًا لم يجاوز الخامسة والعشرين

فإن تقوى روحه، كانت أقوى من إغراء شبابه، فلم يلبث فى منصبه إلا بضعة أشهر حتى ضاق به، ودعا المسلمين إلى مؤتمر مشهود، ونهض يخطب الجمع الحاشد فقال:

"أيها الناس!!

إن جَدِّى معاوية، نازع الأمر أهله، ومَن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله ﷺ وسابقته فى الإسلام، وهو: على بن أبى طلب

ولقد ركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار فى قبره رهين أعماله..

ثم تقلد أبى - يزيد - الأمر من بعده، فكان غيرَ أهل له..

رَكِب هواه، وأخلفه الأمل.. وقصر به الأجل، ثم صار فى قبره رهين ذنبه، وأسير جُرمه.!!

وإن من أعظم الأمور علينا عِلْمنا بسوء مُنقلبه، وقد قتل عِتْرة رسول الله ﷺ، وأباحَ الحرم، وخرَّب الكعبة..!!

وما أنا بالمتقلدً أمركم، ولا بالمتحمِّل تبعاتكم فاختاروا لأنفسكم..

والله، لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نِلنا منها حظًا.. ولئن كانت شراً؛ فكفى ذرية أبى سفيان ما أصابوا..

ألا فليُصلِّ بالناس حسَّان بن مالك، وشاوروا فى خلافتكم، يرحمكم الله..!!

ثم غادر منبره إلى داره، ولبث بها عاكفًا على عبادة الله، حتى لقيه

راضيًا مرضيًا..

إن هذه الكلمات التى قالها "معاوية الثانى" ابن ـ يزيد ـ وحفيد ـ معاوية بن أبى سفيان ـ لتشكّل برهانًا باهرًا على عدالة القضية التى هى فى غنى عن كل برهان..

وهذا الشاب الصالح الذى أثقلت ضميره الحرَّ أوزارُ آبائه، قدَّم بموقفه ذاك.. أو بالأحرى قدَّم القدرُ به وبموقفه وثيقة الإدانة كاملة وصادقة لأولئك الذين وقفوا من الإمام، ومن أبنائه، ومن القضية التى حملوا مشعلها، مواقف الكيد والعداء.

وإننا اليوم، وبعد مضى ما يقرب من أربعة عشر قرنًا على ذلك الصراع، لنَجدُ حرارة الصدق ووضوح الحق فى موقف "الإمام على" من "معاوية" .. ثم فى موقف "الحسين" من يزيد..

إننا نتصور عصر النبوة، كما كان فى عهد منشئِه وبانيه محمد رسول الله ﷺ.

ثم نتصوره كما كان فى عهد خليفتيه النادريْن الباهريْن "أبى بكر وعمر"، فنرى جلالاً يسحر القلوب والألباب.!! ويأخذنا الأسى ونحن نرى بعض الغواشى تغشى ذلك الجلال فى عهد "عثمان" لا بسبب قصور فى صلاحه وتقواه.. بل بسبب ذلك النفر من الأمويين الذين أساءوا استغلال سلطانهم.. وكذلك بسبب عوامل تاريخية كان لها دورها المسئول [1].

ثم تشرق الآمال فى عودة ذلك الجلال لمطالعه العظيمة، وتألقاته الباهرة، حين يلقى عبءُ الخلافة على سليل بنى هاشم، وتلميذ الرسول

---

[1] راجع كتابنا "خلفـــاء الرسول".

ﷺ، وبطل الإسلام "على" ..!!

ذلك أنه ـ كما تُطالعنا سيرته ـ كان ـ رغم كل الفتن التى سبقت خلافته وصاحَبَتها ـ قادرًا على إرجاع السيادة لفضائل عصر النبوة.

فدينُه، وورعُه، وزهده، وعلمه، وإخلاصه، وإخباتُ روحه، واقتدار عزمه..

كل ذلك ـ وكم كانت حظوظه منه وافية ـ هيأه بفضل الله ونعمته، ليكون فى تلك الأيام التى تلقى فيها أعباء الخلافة، الرجل الذى ينتظره زمانه، ومكانه، وتنتظره المناسبة على فاقةٍ إليه وشوق..!!

أجل.. لقد كان بشخصيته وبسلوكه وبأخلاقه وبضميره وبدينه، من أقدر العالمين على تجسيد عصر النبوة.. بكل قِيَمه السامية وفضائله العالية..

فهو رجل ورعٍ من أرفع طراز يدخل الكوفة بعد استخلافه، فيرفض أن يسكن قصر الإمارة الباذخ ويقول: "إنه فتنة" .. ثم يأوى إلى بيت من طوب نيِّئ يشبه أكواخ الفقراء..!! ويعمد إلى بيت المال فيخرج ما فيه ويوزعه على مستحقيه، ثم ينضحه بالماء.. ثم يُصلّى فيه لله رب العالمين إيذانًا بأن المال فى عصره لن يكون فتنة.. بل سيكون رحمة!!!

ورجلُ صِدقٍ وشرفٍ من أرفع طرازٍ ـ يقولون له إن معاوية يتألف القبائل والجماعات بالمال.. فأعط الناس كما يعطى، فيقسم أنه لن يرشو فى الحق أحدًا .. لن يعطى مال الله الذى ائتمنه عليه لغير من يستحقه..!! ثم يرجونه ويُلحون عليه أن يَدع الولاة الأمويين فى أماكنهم حتى يُبايعوه وحتى تستقر خلافته وعهده، فيرفض ويقول:

"لا والله، لا أدعُ الله يسألني: لماذا أبقيتهم وهم غير أهلٍ لها ساعةً من نهار"..!!؟

* * *

ورجل ديمقراطية وشورى من أرفع طراز ـ يخضع لرأى الأغلبية فى موضوع التحكيم، وهو يؤمن أعمق إيمان بأنه خدعة ستتلوها الكارثة.. ولقد حاول إقناع الذين معه بكل ما أوتى من بلاغة وصدق، ولكن دون جدوى.. وعلى الرغم من أنه آنئذ كان فى حرب قائمة بالفعل مما قد يعطيه الحق فى أن يمضى مع اقتناعه، إلا أنه انحنى فى جلال وعظمة لحق الشورى ورأى الجماعة..!!

ويتكرر نفس الموقف حين جرى الحوار لاختيار من يمثلهم فى التحكيم؛ فلقد نادى قوم باختيار "أبى موسى الأشعرى" وراح الإمام يفنّد اتجاهاتهم، ويدعوهم لاختيار "عبد الله بن عباس" أقدر الناس على مواجهة الداهية "عمرو بن العاص" الذى سيمثل معاوية فى التحكيم، ولكنهم أصرّوا، وكانوا أغلبية، فتخلى عن رأيه لرأيهم..

ورجلُ عدالة ورحمة من أرفع طراز لقد كان فى أمسِّ الحاجة إلى مؤازرة وُلاته فى موقفه العسير.. وكان ذلك يقتضيه المُلاينة فى محاسبتهم.. لكنه يرفض دائمًا أن يطلب النصر بالجوْر..!!!

ومن الجوْر عنده أن يتغافل عن أية هفوة من وُلاته، وهكذا راح يحاسبهم بعدالة صارمة، حتى خسر نُصرة الكثيرين منهم دون أن يُلقى لهذه الخسارة بالاً..!!

وأى صورة للعدالة وللرحمة يمكن أن يرقى إليها حاكم كهذه الصورة التى يتجلى فيها "ابن أبى طالب" ودماؤه تنزف وأجَله يسرع،

وقد جيء إليه بقاتله، فلا يشغل باله ولا يؤرِّق حياته فى لحظات وداعها سوى مصير قاتله.. وحين يقدر على الكلام تنفرج شفتاه عن هذه الكلمات:

"يا بنى عبد المطلب!! لا ألفينَّكم تخوضون فى دماء المسلمين خوضًا، تقولون: قُتِل أمير المؤمنين..

أحسنوا نُزلَه - يعنى قاتِله - فإن أعش؛ فأنا أولى بدمه قصاصًا أو عفوًا.. وإن أمُتْ؛ فاضربوه ضربة بضربة..

ولا تمثِّلوا بالرجل؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إياكم والمُثْلة، ولو بالكلب العقور"..!!

* * *

ورجلُ نسُك من أرفع طراز، غزير الدمعة من خشية الله، دائم الإخبات لله.. يلبس أخشن الثياب، ويأكل أجْشَب الطعام.. ويحيا بين الناس كواحد منهم..

وكان نسُكه كخليفة يُتمِّم نُسكه كعابد، فكان يأبى إلا مشاركة الناس فى كل ما ينزل بهم من ضرّ وشظف.. ويخص نفسه من ذلك بالنصيب الأوفى..!!

ولقد لخص لنا نُسك خلافته وإمارته فى هذه الكلمات:

"أأقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان..!!؟

والله، لو شئتُ لكان لى من صفْوِ هذا العسل، ولُباب هذا البُرّ، ومناعم هذه الثياب..

ولكن، هيهات أن يغلبنى الهوى؛ فأبيت مِبطانًا وحولى بُطونٌ غَرْثــى وأكبادٌ حَرَّى "..!!

* * *

هذه الومضة من حياته ومن عظمة منهجه وسلوكه، تصور على نحــو متواضع القضية التى نهض يقاتل من أجلها.. قضية استمرار عصر النبوة بكل فضائله ومزاياه؛ وإنها لقضية جديرة بولاء لا ينتهى، وتضحيات لا تفنى.. وهى لم تكن بالنسبة للإمام "علىٍّ" قضية خاصة، ولا قضية شخصية، بل هى قضية الإسلام كله، وقضية كل مؤمن وأوّاب.

وإذا كانت الأقدار ستُؤثره وأبناءه من بعده، بأن يكونوا أعظم شهدائها وأشرف قرابينها؛ فلتكن مشيئة الله..

إن هناك من يموتون من أجل الباطل، ومن يموتون فى سبيل الحق؛ فما مزية الحق على الباطل فى مجال التضحية والفداء..؟؟

مزِيّته أن ضحاياه شريفة ورفيعة وغالية.. بينما ضحايا الباطل صغيرة دنيئة مُحقَّرة..!!

فليكن هو وأبناؤه شرفًا للحق فى مماتهم واستشهادهم، كما كانوا شرفًا له فى مَحياهم..!!

وهكذا كان من الصعب عليه، بل من المستحيل أن يترك قضية الإسلام للأهواء التى هبَّت عليه جائحة، جامحة.

كانت "المُهادنة" مستحيلة..

وكانت "المُسايرة" أكثرَ استحالة..

ولم يكن أمامه سوى أن يحمل سيفه وكفَنَه، ثم يمضى..

فللمسئوليات العظام خُلِق.. وللتضحيات يعيش..

وإنه لسليلُ بيتٍ، كانت العظمة دِثاره، حتى فى الجاهلية وقبل الإسلام..

وإنه لتلميذُ دينٍ نشأ، ونما، بين أروع التضحيات وأشرفها وأسماها..

إنه لحوارىّ رسولٍ جعل صلاته، ونسكه، ومحياهُ ومماته لله رب العالمين..

فأين يذهب من هذا كله..؟؟

وأين يذهب منه أبناؤه الذين ربَّاهم على نهجه، وغذَّاهم بفدائيته..؟؟

وماذا ينتظره وينتظرهم من أخطار..؟؟

الموت..؟ القتل..؟ الشهادة..؟

ليأت الموت، وليأت القتل، ولتأت الشهادة.!!

ليجىء ذلك كله مرة، وعشراً وألفًا.. فذلك دَورهم فى الحياة: أن يعلِّموا الناس فى جيلهم وفى كل الأجيال، أنَّ الوقوف إلى جانب الحق، والتضحية المستمرة فى سبيله هما أصدق مظهر لشرف الإنسان وقداسة الإنسان..!!

أليْسوا آل بيت رسول الله ﷺ الذى قال:

"والذى نفسى بيده، لودِدتُ أن أُقتَل فى سبيل الله، ثم أحيا، ثم أُقتَل، ثم أحيا، ثم أُقتَل"..!!

بلى.. إنهم أهله وأبناؤه..

ولقد حَملوا مصايرهم فوق أكفِّهم، ومضَوا إلى مسئولياتهم فى

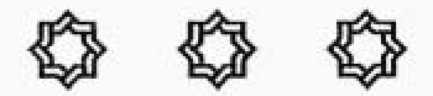
حُبور..!!

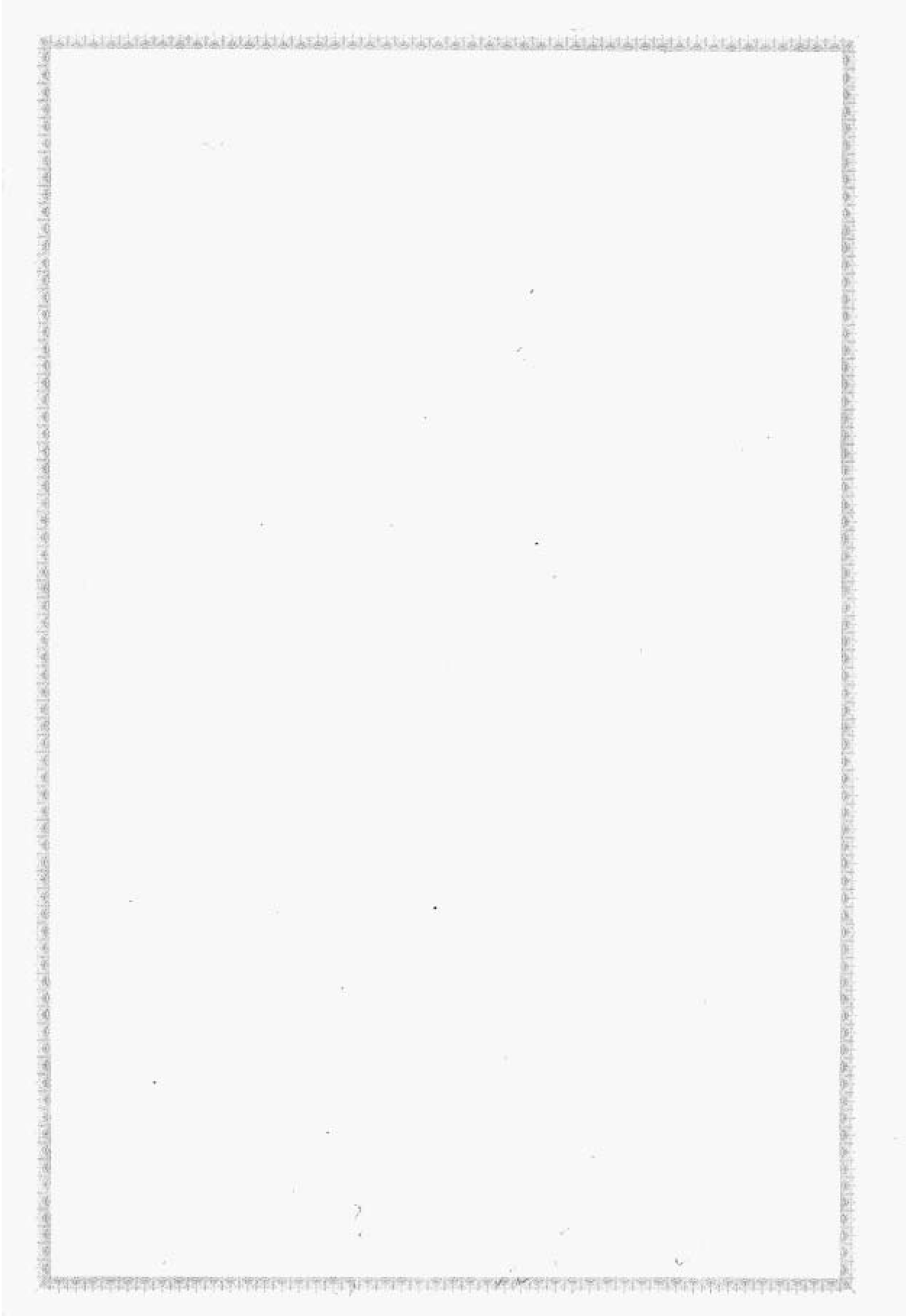
لم يكـن هنـاك مـا يزعجـهم، سـوى أن الحـرب التـى يخوضونـها مضطرين ليست من نوع تلك الحروب التى كانوا لا يلاقون فيـها سـوى جيوش الوثنية والشرك، فيفلُّون سلاحها ويُسوّون أقدارها بالتراب..!!

ورغم ضراوة الظروف التى فَرضت عليهم القتال، ورغـم إلحاحـها الدّائب، فإن إيمانهم بأهمية السلام لم يَعدَم من يُجسِّده من آل البيـت، فيقدم فى سبيل حَقن الدماء تضحية أخرى عظيمة..!!

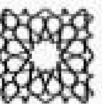
ذلكم، وهو "الحسن بن على" رضى الله عنه وأرضاه.

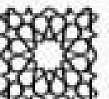
فإلى الكوفة.. لنشهد موقفه، ونقْفُوَ خُطاه..



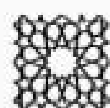


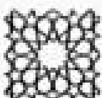
الفصل الثالث

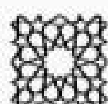


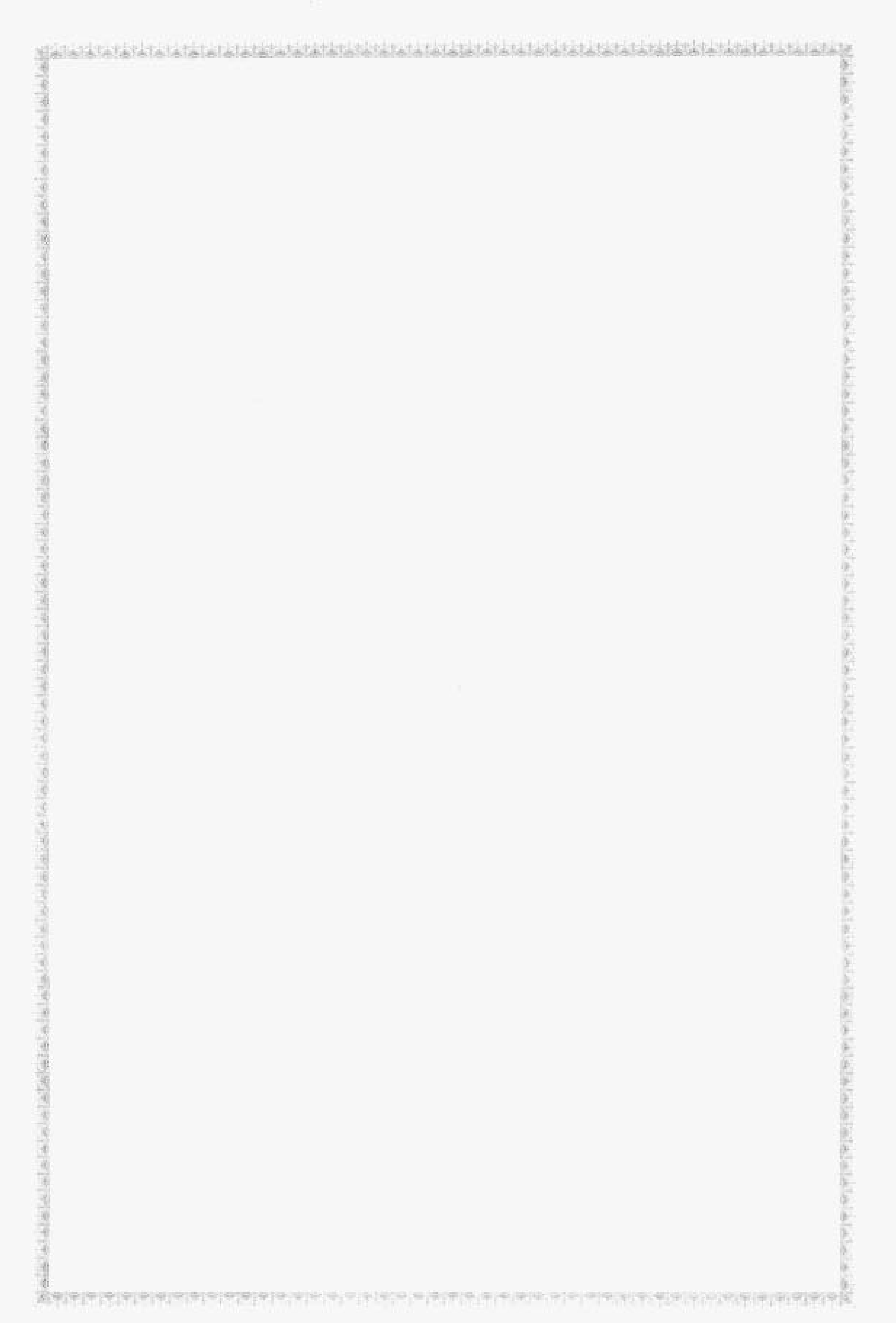


السيد يفرض السلام









عندما كان "الإمام علي" يجود بروحه الطاهرة على أثر ضربة غادرة تلقاها من مغتال أثيم، سأله بعض أصحابه أن يستخلف من يختار من أبنائه وأهله فأبى.. ودعاهم أن يختار الناس بعد موته من يحبون ويرتضون.

أجل.. لم يوص لأحد من أبنائه بالخلافة، فقد كانت هناك وصية أخرى تشغل باله ويدخرها لهم. فدعا إليه "الحسن والحسين" وقال لهما:

"أوصيكما بتقوى الله..

ولا تبغيا الدنيا؛ وإن بغتكما.. ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما..

افعلا الخير..

وكونا للظالم خصما، وللمظلوم عونا..

كلمات جديرة بصاحبها، ووصية جديرة بموصيها..!!

* * *

وتلفت الناس حولهم، فوقعت أعينهم وقلوبهم جميعا على رجل واحد بسطوا إليه أيمانهم مبايعين.. كان ذلك الرجل الكريم

"الحسن بن على" الذى كان أكبر أبناء الإمام الشهيد.

وتلقى "الحسن" البيعة على أثر فراغه من الصلاة على أبيه ودفنه..

تلقاها كارهًا دون أن يتركوا له حق الخيار والاعتذار. إذ قام "قيس بن سعد بن عبادة" بطل الأنصار والإسلام، فبايع "الحسن"، حيث تقدمت على أثره الجموع الحاشدة، ثم الجموع الوافدة..

ولم يكد الأمر يستقر للحسن.. ولكن لا .. فإن الأمور يومئذ كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار!!

ولقد كانت حُلكة الأحداث تجعل من قبوله البيعة؛ فالخلافة تضحية من أكبر التضحيات.

ولعل شيئًا ما، لم يُعِن "الحسن" على تقبلها مثلما أعانه ذلك الأمر الذى وقر فى صدره منذ يَفاعته وشبابه.

ذلكم هو حبه الوثيق للسلام، ونُبوءة الرسول ﷺ له منذ طفولته بأن الله سيحقن به دماء المسلمين فى يوم من الأيام.. إن أصحاب رسول الله ﷺ يذكرون ذلك اليوم الذى صعد فيه الرسول ﷺ منبره، وقد صحب حفيده "الحسن" وكان طفلا يحبو، حيث أجلسه إلى جواره، وضمه إليه، وقال:

"إن ابنى هذا سيِّد..

وعسى الله أن يصلح به بين طائفتين من المسلمين".

والآن، يجىء الأوان المناسب ـ أوفى ما تكون المناسبة ـ لتحقيق هذه النبوءة الصادقة.!!

وها هو ذا أمير المؤمنين "الحسن بن على" يواجه المواقف

بتقديرين:

أحدهما نابع من طبيعته وشمائله..

وثانيهما، منبعث من ظروف المعركة وآثارها..

فأما عن الأول؛ فقد كان الحسن بطبيعته يؤثر السلام على الحرب وكان يألف الأناة، ويختار فى معالجة المشكلات أقربَ الحلول من السكينة والقصد..

وعلى سبيل المثال، نراه حين حوصِرت المدينة فى عهد الخليفة "عثمان" وحوصرت دار الخليفة نفسها، واستنفد الإمام "على" طاقته وجهده فى إطفاء الفتنة دون جدوى. يتقدم هو لأبيه الإمام برأيه فى أن يُغادر الإمام المدينة؛ حتى لا يُقتل الخليفة وهو بها فيتخذها خصومه وحُسَّاده مادة للتشويش حوله..!!

وكذلك حين استشهد الخليفة "عثمان" وعرض الثوار الخلافة على "الإمام على" فرفضها، ثم عُرضت على آخرين من الصحابة فلم يكن أمامهم سوى الرفض تأسِّيًا بِعلىّ.. ثم زحفت الفوضى تهدد كل شىء فعاد الثوار إلى "على" ومعهم قادة الصحابة المسلمين يلحون عليه بقبولها فقبلها مُكرهًا..

يومئذ، كان للحسن رأى آخر يتّسق مع طبيعته، فحواه أن يرفض أبوه البيعة، حتى تأتيه بإجماع المسلمين من كافَّة أقطار الدولة..!!

ولقد كان يعلم أن البيعة تنعقد شرعًا وعُرفًا بمن حضر الحرمَين من المهاجرين والأنصار. لكنه إمعانا فى نُشدان السكينة وتجنّب الفتنة، رأى أن يركب "الإمام" الصعب من الأمور، وينتظر مهما تكن الظروف بيعة جميع الأقاليم..

ومثل ثالث: موقفه حين خرجت "السيدة عائشة" ومعها "طلحة والزبير" إلى البصرة، ليحرضوا أهلها ضد قتلة "عثمان".

يومها رأى "الإمام على" وقد أصبح بحكم خلافته مسئولاً عن أمن الدولة وسلامة الأمة.. رأى أن يخرج وراء هذا الركب ليلوى زمامه عمًا عساه يُثير حربًا أهلية، ويشجع حكام الشام على التمرد والعصيان..!

لكن "الحسن" استجابة لطبيعته المسالمة، رأى أن يبقى أبوه بالمدينة بل وأن يعتكف فى داره حتى تمر الفتنة بسلام..!!

هذه المواقف الثلاثة تكشف عن طبيعة صاحبها، وعن مدى تعلُّقه بالأناة، وإيثار السلام.

وأما عن التقدير الثانى، الذى أزْجَتْه ظروف الحرب وآثارها، فإن الحرب التى خاضها "الإمام على" كانت قد فجَّرت من المشاكل والهموم ما يهدّ الجبال.

وكانت آثارها المرهقة، قد أجهدت المجتمع والدولة كليهما.

وكان "الحسن" وهو يتلقَّى البيعة بيمينه، يرنُّ فى سمعه صدى كلمات أبيه الناقمة والآسفة التى وجهها فى أخريات أيامه لأهل الكوفة الذين كانوا ـ وهم أنصاره ـ أشدُّ إرهاقًا له من خصومه..!!

".. أما والله لوددتُ أن الله أخرجنى من بين أظهُركم، وقبضنى إلى رحمته من بينكم..

فقد والله ملأتم صدرى غيظًا، وجرَّعتمونى الأمرَّين أنفاسًا، وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان؛ حتى قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا عِلْم له بالحرب..

لله أبوهم!! هل كان فيهم أشد لها مراسًا وأطول مُعاناةً منى..؟؟

لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين.. وهأنذا اليوم وقد عدوتُ الستين.. ولكن، لا رأى لمن لا يُطاع"..!!!

كانت هذه الكلمات للإمام، يُدوّى فى سمع "الحسن" صداها.. كما كانت تَلحُ عليه فى وضع نهاية للصراع الذى حاول أبوه أن يتحاماه دون جدوى.

ولكن ذلك لا يعنى بحال أنه آثر السلام وهو فى "مركز ضعف" لا، بل آثره وهو فى "مركز قوة" مكين.

يقول "الحسن البصرى" رضى الله عنه:

"استقبل والله الحسنُ بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إنى لأرى كتائب، لا تولّى حتى تقتل أقرانها، فقال معاوية: إذا قتل هؤلاء أولئك، فمن لى بأمور الناس".

ورغم ما كان بأهل الكوفة من تفسُّخ وتردّد؛ فقد كان تحت تصرف "الحسن" حين آثر السلام أربعون ألف مقاتل، يُشكّلون جبهة واحدة، قوية وصامدة.. تحت إمرة رجل من أعظم رجال الإسلام وقوّاده ـ ذلكم هو: "قيس بن سعد بن عبادة"..

ولقد كانوا مصممين على مواصلة الحرب ضد معاوية تصميمًا حمل بعضهم على مُجابهة "الحسن" حين رأوه يعتزم الصلح وإقرار السلام مجابهة قاسية وعنيفة رغم حبهم له وتوقيرهم إياه.

هو إذن لم يؤثر السلام على ضعف ولا عن عجز.

ولم تكن الظروف العسيرة التى تسلم الخلافة فيها لتجاوز قدرها

فى كونها مجرد "موضوع" لتفكيره فى السلام..

أما "مصدر" تفكيره فى السلام فكان طبيعته وخصاله.

وهكذا قرر أن يعرض، بل أن يفرض السلام على معاوية..

وقولنا "يفرض" السلام، تعبير لا مُبالغة فيه؛ فقد تغلّب على ظروف كثيرة لكى يجعل السلام حقيقة ناجزة.

وحسبنا أن نعلم أن أخاه "الحسين" مضى شوطًا بعيداً فى معارضته حتى قال له "الحسن":

"لقد هممتُ أن أحتجزك فى دار موصدة الأبواب، ثم لا أدعك تخرج حتى أنتهى مما أريد"..

* * *

كان "معاوية" قد تحرك بجيشه من الشام قاصداً الكوفة. عندما علمَ باستشهاد الإمام واستخلاف الحسن..

وكان الحسن قد خرج على رأس جيشه للقائه.

وإذْ هم فى طريقهم إلى المدائن، نهض بين صفوف جيشه وقال:

"إنى قد أصبحتُ، لا أحمل لمسلم ضغينة:

وإنى ناظر إليكم، نظرى إلى نفسى، وقد رأيت رأيًا؛ فلا تردّوا علىّ رأيى:

إن الذى تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفُرقة"..!!

وثار الجيش ـ كما ذكرنا من قبل ـ لكنه كان قد وطّد عزمه على حقن الدماء.

وكان معاوية من جانبه يتوق للسلام تَوْقَ الغريق إلى زورق النجاة..

فأرسل مبعوثين إلى المدائن، للتفاوض مع "الحسن" وكانا: عبد

الرحمن بن سَمُرة.. وعبد الله بن عامر.. أبلغهما "الحسن" شـروطه التـى لم يكد معاوية يسمع فيها بعد، حتى تقبلها فى غير تردّد أو تساؤل.

وتركزت شروط "الحسن" للصلح فى هذه البنود الأربعة:

أولا: أن ترجع الخلافة بعد معاوية إلى المسلمين حيث يختارون بمشيئتهم الحرة، من يرونه أصلح لقيادتهم وأجدر.

ثانيًا: ألاَّ يؤخذ الذين ناصروه وناصروا أباه الإمام من قبل بما صنعوا ضد معاوية، وألاَّ يُحرم أحد منهم حقه وعطاءه.

ثالثًا: أن يُكف الأمويين عن حملة السّباب واللعن التى يقترفونها ضد الإمام، ويشجعون عليها..

رابعًا: أن يكون عطاؤه وعطاء أخيه "الحسين" وافرًا وجزيلاً. ولقد حدّد بنفسه مقدار هذا العطاء.

وإذا كان هناك من بين هذه الشروط ما قد يلتبس علينا أمره، ويحتاج إلى مناقشة وتفسير، فذلكم هو الشرط الرابع والأخير.

لقد يبدو غريبًا أن يُفرط رجل مثل "الحسن" بن على، وحفيد الرسول ﷺ فى طلب عطاءٍ كثير له ولأخيه.

ولكن، كما يقال: إذا عُرف السبب، بطُل العجب..

وحسبنا أن نعرف فيم كان ينفق "الحسنان" أموالهما لندرك على الفور الحكمة فى هذا الاشتراط.

وقبل هذا، علينا أن نذكر أن ميزانية الدولة الإسلامية، كانت أيامئذ قد بلغت مدى هائلا من الكفاية والثراء.

وبدأ ذلك النمو المطرد منذ فتوح الإسلام فى عهد "عمر".

وفى عهد معاوية، كانت أموال غزيرة تُنفق وتُبعثر فى سبيل دعم حكمه وتركيز الولاء له.

بينما كان "الإمام على" وهو خليفة مسئول فى العراق يعطى المسلمين حقوقهم من بيت المال بالسوية، رافضا أى تمييز أو سرف..!! حتى لقد أغضب بعض أنصاره، حين رفض أن يتألف الناس بالمال، ويختص بعض القبائل بأكثر من حقها، قائلا عبارته المأثورة:

"أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور"؟!

والآن، بعد أن يتصالح الحسن ومعاوية ويصبح أمر الخلافة كله له، فلن يكون هناك سوى بيت مال واحد هو الذى يشرف عليه معاوية بحكم سلطته وسلطانه.

و "معاوية" يعطى الأموال وفق مقاييسه الخاصة..

فماذا يكون الموقف إذا أخلف صلحه أو بعض صلحه غدا، فكف العطاء أو بخل عن بعض أولئك الذين كانوا من قبل يناصرون "الإمام" ويناصرون "الحسن"؟؟

لابد للحسن إذن أن يتحوط لهذا الاحتمال..

وهنا يفضى بنا الحديث إلى حيث نعرف أين كان ينفق "الحسن والحسين" أموالهما..

لقد كانا يعودان بالكثير منها على نفر من الذين فقدوا ثرواتهم فى سبيل القضية التى ناصروا فيها الإمام.

وكانا يغدقان برهما ونداهما على أولى الأرحام، وعلى الفقراء والمساكين..

لقد انفرد "الحسن" بأنه الرجل الذى قاسم الله ماله ثلاث مرات..

وخرج عنه كله مرتين..!!

ورجل هذه شيمته، لا يطلب المال ليترف به، إنما يطلبه ليؤدى به حقوقا كثيرة، أهونها كفالة الأرامل والأيتام الذين استشهد أزواجهم وآباؤهم وهم يقاتلون تحت راية الإمام..!!

فمن أجل تلك الحقوق، ومن أجل شغفه بالخير والبر اشترط لنفسه ولأخيه وفرة العطاء..

وحسبنا فى هذا المقام شهادة "معاوية" نفسه، فذات يوم أعد أحمال الهدايا التى كان يرسلها بين الحين والحين لصفوة الصحابة فى مكة والمدينة.

وبينما القافلة تتهيأ للسفر، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم: "إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهذه الهدايا" ..

ثم راح يسمى بعض الأسماء، ويسوق الحديث عنها، حتى جاء ذكر "الحسن والحسين" فقال:

".. وأما الحسن، فلعله يدع لزوجاته بعض الطيب، ثم يترك لمن حوله كل شىء..!!

وأما "الحسين" فيبدأ بأيتام الذين قتلوا مع أبيه فى صفين فإن بقى بعد ذلك شىء نحر به الجزر، وسقى به اللبن" ..!!

أجل.. هذه شهادة "معاوية" .. وفيها فصل الخطاب!!

ومن فصل الخطاب أيضا، أن العطاء الجزيل الذى فرض لهما، لم يكن يكفيهما، مع أنهما لم يعرف عنهما قط عيش المترفين ولا حياة المسرفين.!!

ولقد تراكم على "الحسين" دين ثقيل، وانتهز معاوية الفرصة

فعرض عليه قدرا كبيرا من المال يقضى به ديونه، نظير بيعه عين ماء كانت للإمام "على" بالمدينة، وكان الإمام قد أهداها فقراء المدينة وأهلها، يرتوون منها بغير حساب.. ورفض "الحسين" هذا العرض..

ففيم إذن كانت هذه الديون رغم وفرة العطاء لقوم لا يحيون فى ترف ولا فى سرف..؟!

إنها كانت بسبب حقوق مذخورة، وعطايا مبرورة تعودها الكرام، أبناء الكرام..!!

قبل معاوية شروط الصلح من فوره، وتنازل له الحسن عن الخلافة وسارع معاوية إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهل العراق..

وفى الجمع الحاشد من المسلمين، دعا "الحسن" لإلقاء كلمة، فوقف "الحسن" والأبصار شاخصة إليه، والأنفاس معلقة بشفتيه اللتين لا يدرى أحد عن أى نوع من القول ستنفرجان..

وجاءت كلماته فى تلك المناسبة على وفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم.!!

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"أيها الناس..

إن الله هداكم بأولنا.. وحقن دماءكم بآخرنا.. ألا إن أكيس الكيس التقى، وإن أعجز العجز الفجور.. وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه ومعاوية: إما أن يكون أحق به منى، فقد تركته له..

وإما أن أكون أحق به منه فقد تركته لله عز وجل، ولخير أمة محمد ﷺ وحقن دمائها"..

ثم التفت صوب معاوية وقال:

(وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)..!!

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصالتها في مثل هذه المواقف ويمثل هذه الكلمات.. حيث يلتقى الصدق، والقوة، والترفع، والحكمة أسعد لقاء..!!

ومضى كل إلى سبيله..!!

معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض.. و "الحسن" إلى المدينة، قرير العين بما حقن من دماء، عظيم الغنم بما بذل من فداء.. مرددا كلماته المضيئة هذه:

"لقد كانت جماجم العرب بيدى فى العراق، تسالم من سالمت.. وتحارب من حاربت.. ثم تركتها ابتغاء وجه الله"..!!

ولقد وفى بعهده مع معاوية. ووفى بالعهد معه أخوه "الحسين" الذى كان قبل إبرام الصلح من أشد معارضيه.

ترى، هل سيفى معاوية؟ أم أن إغراء السلطة المطلقة سيجشمه مشقة الوفاء..؟؟

على أية حال، فقد أدى الحسن ما اعتقده واجبا، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهل له.

لقد ترك للآخرين دنياهم، وعكف هو على الطاعة، والعبادة والخير..

عابدا: يحب الله ويخشاه، ويخرج إلى الحج من المدينة إلى مكة أعواما كثيرة ماشيا على قدميه والنجائب تقاد بين يديه، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب:

"إني أستحى أن ألقى ربى، ولم أمش على قدمى إلى بيته"..!!

جوادا: لم يكن يبقى من ماله شيئا.. لا يعرف مكروبا إلا فرج كربته، ولا غارما إلا قضى دينه..

سيدا: لا يعرف الدنية ولا يقبلها، ولا يعرف السوء طريقا إلى لسانه ومقاله..

يقول "محمد بن إسحاق"

"ما رأيت أحدا كان إذا تحدث تمنيت ألا يسكت، مثل الحسن بن علي.. وما سمعت منه كلمة سوء قط.. وإن أشد كلمة سمعتها منه، هي تلك التي قالها حين وقعت خصومة بينه وبين عمرو بن عثمان، فقال الحسن: ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه.. تلك أشد كلمة سمعته يقولها"..!!

ولقد تحدث رضى الله عنه راسما للناس صورة المؤمن المثالى الرشيد، فقال:

"إنه من تصغر فى عينه الدنيا ويخرج على سلطان بطنه، وفرجه، وجهله..

لا يسخط ولا يتبرم..

إذا جالس العلماء، كان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم.. وإذا غلب على الكلام، لم يغلب على الصمت..

لا يشارك فى ادعاء ولا يدخل فى مراء..

لا يغفل عن إخوانه، ولا يختص نفسه بخير دونهم.

وإذا تردد بين أمرين، لا يدرى أيهما أقرب إلى الحق. نظر أيهما أقرب من هواه، فخالفه واتقاه"..!!

هذه خلاصة لدستور ومنهاج نفسه، أفلا يكون قرير العين إذن بهذا السلام الذى سيوفر لـه فرصـة العكـوف علـى فضائلـه ومزايـاه ينميـها ويزكيها..؟! بلى.. ولقد استقر وأخوه وآل بيتهما بمدينة رسول الله ﷺ..

ولم يكد تنزاح عن الناس فى شتى الأقطار غمرات ما كانوا فيه من خلاف وصراع، حتى راحت أرواحهم تهفو نحـو المدينـة، وخواطرهـم تطوف من قريب وبعيد حول ريحانتى رسول الله ﷺ..

ومع مرور الأيام، كان تطلع المسلمين إلى المدينـة بمـا فيـها مـن هدى ونور، يفوق تطلعهم إلى دمشق رغم ما فيها من دنيا وإغراء..

وراحت مجالسهم وندواتهم فى كل بلد تردد مـا نقلـه الثقـات مـن أصحاب الرسول ﷺ عن حبه لابنيه "الحسن، والحسين".

كان الناس يسمعون ويتنـاقلون أنبـاء هـذا الحـب العظيـم الـذى أضفاه عليهما جدهما النبى ﷺ، فتكاد أفئدتـهم تطـير شـوقا إليـهما.. حتى بعض أولئك الذين ناصبوهما من قبل العداء.

وراح المسلمون يـرددون تلـك الأحـاديث التـى تصـور قدرهمـا، والتى حباهما الرسول بها كثيرا:

"الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنـة، بعـد عيسـى ويحيـى عليهما السلام"..

"هذان ابناى.. وابنا ابنتى.. اللهم إنى أحبـهما فأحبـهما، وأحـب من يحبهما"..

"اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا"..

"الحسن، والحسين ريحانتاى من الدنيا".

"حسين منى، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا" ..

وهكذا استولى على الناس ولع نبيل، بتتبع أنباء حياتهما - مذ أهلا على الحياة..

كيف اختار الرسول ﷺ بنفسه اسميهما..؟ كيف كان يداعبهما..؟ كيف كان يحزن أن يسمع بكاءهما..؟

وراحت الوفود من كل مصر تشد رحالها إلى المدينة لتلقى بها ابنى رسول الله ﷺ وأحب الناس إليه، ولترتشف من حكمة "الحسين" الذى عكف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول ﷺ..

وكانت حلقات درسه غاية فى الجلال والمهابة..

وصفها معاوية نفسه فقال:

"إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ، فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رءوسهم الطير؛ فتلك حلقة أبى عبد الله الحسين"..

كذلك أخذ الشاكون من ظلم ولاة معاوية واستهتارهم، يغذون السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى "الحسن والحسين" فيدعوان الناس للصبر، ويرسلان لمعاوية بالنصح..

ترى، هل سيصبر بيت أبى سفيان على هذه المكانة المتصاعدة دوما فى قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته..؟؟

كلا . . .

وذات يوم، دس للإمام الحسن السم فى الطعام..!!!

ويمسك التاريخ فى هذه الجريمة الدنيئة، بإحدى زوجاته وهى - جعدة بنت الأشعث بن قيس - كما يمسك بأصبع الغدر الأموى.. ومن

عجب أن الأشعث بن قيس، والد جعدة - كان مـن أبـرز أنصـار الإمـام علي.. ثم كانت لـه أثنـاء خدعـة التحكيـم وبعدهـا مواقـف مشـبوهة، ومحاولات مريبة.. كانت سببا فى أكثر ما نـزل بالإمـام يومـها مـن آلآم وأخطار..!!

ومرض "الحسن" عليه السلام مرض الموت.

وبقيت أصالة فطرته وإيمانه متألقة، حتى تحت وطأة هذا الاغتيـال الخفى، والسقم الفاجع الأليم!!

ففى علته هذه، أخذ أخوه "الحسين" يلح عليه كـى يبـوح لـه بمـن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء.

لكن حفيد الرسول العظيم ﷺ، لا ينسى مبادئه تحـت سـحق آلامـه فيسأل أخاه:

"وفيم سؤالك عمن سقانى السم..؟

أتريد أن تقاتلهم..؟

لا.. إنى أكل أمرهم إلى الله..!!

انظروا..

إنه حتى فى غمرة الموت لا تتخلف إرادته عن مبادئه، ويبقى رجـل الأناة والسلام فيه، متفوقا على الألم، وعلى الكراهية.. بل وعلـى حقـه العادل فى القصاص المشروع..!!

وراح يملأ أيامه الباقية بالصلاة والدعاء، مرددا منها ذلك الدعاء الذى كان جده الرسول ﷺ قد علمه له منذ شبابه.

"اللهم اهدنى فيمن هديت، وعافنى فيمـن عـافيت، وتولنـى فيمـن توليت، وبارك لى فيما أعطيت، وقنى شر مـا قضيـت، فإنك تقضـى ولا

يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت تباركت ربنا، وتعاليت" ..

لقد هداك الله ـ أبا محمد ـ وعافاك، وتولاك، وبارك لك فيما أعطاك..

وما تركت مقاديرك العظيمة جرعة السم تأخذ طريقها إليك إلا لتستكمل بالشهادة والفداء، شرف الانتماء إلى بيت القرابين والشهداء..!!!

* * *

وبعد.. فقد آن لبطل السلام أن تزف إلى الجنة روحه.

ولكن لا تزال أمامنا وصية يريد أن يوصى بها، فقد كان شوقه عظيما لأن يدفن مع جده الرسول ﷺ..

وكان قد استأذن "السيدة عائشة" رضى الله عنها فى ذلك، فأذنت له..

والآن، وشمس حياته تميل للغروب قال لأخيه الحسين:

"إذا مت فادفنى مع النبى ﷺ، فإنى كنت قد طلبت ذلك من عائشة وأجابتنى.. وإذا عارضك بنو أمية، فلا تراجعهم وادفنى فى البقيع..!

ومن أسف أن الذى توقعه قد حدث.. فرفض مروان بن الحكم أمير المدينة من قبل معاوية أن تحقق رغبة الشهيد المسجى.. وأنزل إلى الشارع حرسه المسلح فى خسة ودناءة تليقان بمروان، وبمن على شاكلة مروان..!!

ورأى "الحسين" رضى الله عنه ذلك، فانتضى سلاحه، وصمم على

إنفاذ وصية أخيه..

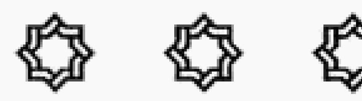
لكن نفرا من الصحابة الأجلاء ذكروه بالفقرة الأخيرة من الوصية وحملوه عليها:

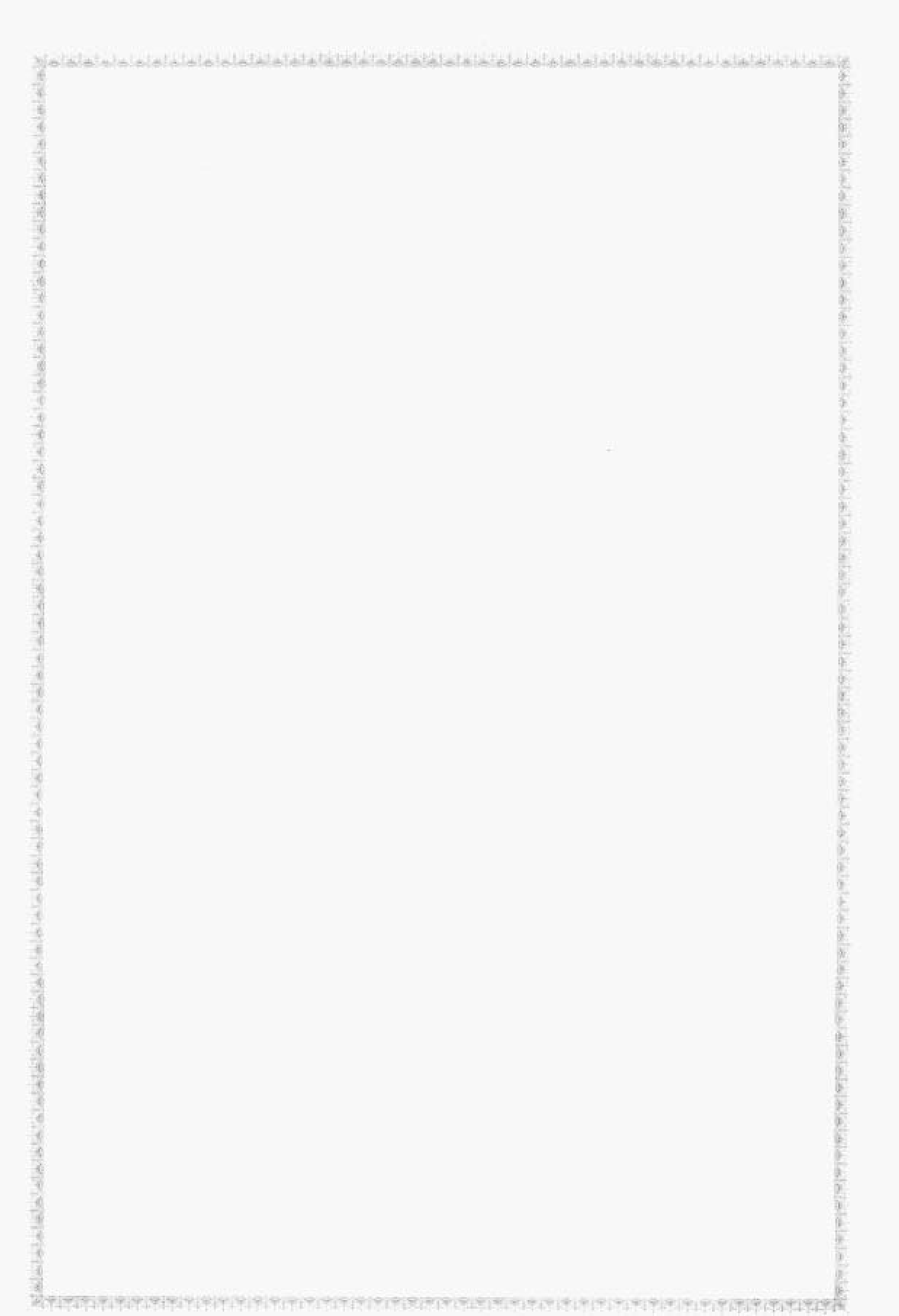
"فإن منعوك، فلا تراجعهم، وادفني في البقيع"..

* * *

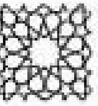
وشرف ثرى البقيع بهذا الضيف المجيد..

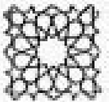
وآبت إلى وطنها في جنات الخلد روح السيد.. وروح الشهيد!!..



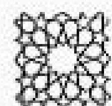


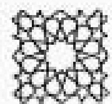
الفصل الرابع

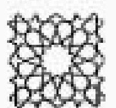




العاصفة تزأر ..









خلص الملك لمعاوية على النحو الذى أراد.. وبتنازل "الحسن" له عن الخلافة سكنت كل الرياح التى كان يخاف هُبوبها على عرشه وحكمه.. فراح يُصرف شئون إمبراطورية من أقوى إمبراطوريات عصره كما يهوى وكما يشاء، وراح يستخدم مزاياه الشخصية وكفايته، كما يستخدم كفاية الذين حوله أبرع استخدام.

راح يوجه كل المزايا وكل الكفايات نحو غاية واحدة هى دعْم سلطانه.

فحلمه، ودهاؤه، وعطاؤه.. كل ذلك يسعُ الناس ما تركوه وسلطانه؛ فإذا هدّد هذا السلطان شىء، فالحلم والدهاء، والصبر والعطاء.. أسلحة تنزل إلى المعركة لتدفع عن السلطان مخاوفه.. فإذا عجزت؛ فالسيف والقتل بغير إبطاء!!

وإن له فى ذلك عبارة مأثورة:

"إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم، ما لم يَحولوا بيننا وبين سلطاننا"..!

ولطالما يحدثنا التاريخ عن قوم كانوا يجبهونَه بقوارض الكلم فى وجهه وأمام الناس، فلا يزيد على أن يضحك. ثم يضحك.. ثم يُجزل

لهم العطاء!!

ولقد كتب يومًا لزياد، واليه على الكوفة والبصرة يقول له:

"إنه لا ينبغى أن نسوسَ الناس بسياسة واحدة، فيكون مقامُنا مقام رجل واحد..

ولكن تكون أنت للشِّدَّة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيننا"..!!

ولو أن معاوية ـ غفر الله له ـ كان أكثر اهتمامًا بسلطان الإسلام منه بسلطان بنى أميَّة، لوفَّر على الإسلام وعلى المسلمين كثيرًا من المخاطر والمهالك التى أفضى إليها حرصُه على ذلك السلطان..

لقد جشَّمه ذلك الحرص من الشَّطط ما كان يعود عليه نفسه بالغُرم الأكيد.

وإنا لنذكُر ـ مثلا ـ تشجيعه النزعة القبلية بإيثاره فى العطاء وفى المكانة بعض القبائل على بعضها الآخر، فهو يُغدق على "اليمانيَّة" ويميزهم فى العطاء. ويجعل لهم كيانًا عسكريًا قائمًا بذاته.. ثم لا يلبث أمرهم أن يعلو ويتفاقم، حتى راحوا يمنُّون عليه بما هو فيه من سلطان، ويقولون: لولا نحن ما كان معاوية.. فيضطرب الأمر فى يده ويُعالج الموقف بخطأ جديد حين يتجه إلى قبائل "القيْسيَّة" فيُغدق عليهم الأموال والامتيازات.. ثم لا يُجديه ذلك شيئًا، فيُرهق نفسه فى التوفيق بين القوتين الكبيرتين من جديد..

كذلك نرى أن الحلم الذى لم يُعرف فى التاريخ بمثل ما عُرف به.. نرى هذا الحلم وهو أبرز خلائقه ومميزاته لا يغنى عنه شيئًا فى دَرء صفة القسوة والقتل عن عصره وحُكمه.. فمصْرع "حُجر بن عدِىّ"

وأصحابه بأمر معاوية وعلى مقربة من قصره بالشام بغير جريرة ولا ذنب، حدثٌ يُجلِّل سلطان معاوية بالسوء..

لقد كان حادثًا بشعًا، حتى لقد ندم هو نفسه على اقترافه، وبقى إلى آخر عمره غُصَّة تُفزعه وتُضنيه..

ثم وصيته إلى ولده يزيد أن "إذا خرج عليك عبد الله بن الزبير فظفرت به فقطعه إرْبًا.. إرْبًا "!!..

ثم قسوة ولاته، واستعلاؤهم على المسلمين بصورة تُثير غيظ الحليم!!.

وإنا هنا ـ في مصر ـ مثلاً ـ لنحفظ ونذكر خطبة أخيه عتبة بن أبي سفيان الذى ولاَّه أمرها بعد موت "عمرو بن العاص" إذ استهلَّ حكمه وولايته بأن جمع أهل مصر الطيبين الوُدعاء، وقام فيهم خطيبًا بهذه القوارع:

"يا حاملى ألأم أنف رُكِّب بين أعين..!!

إنى إنما قلَّمت أظافرى عنكم؛ لِيَلين محسنًا لكم، فأما إذْ أبيتم إلا الطعن على السطان، فوالله لأقطِّعن بطون السياط على ظهوركم.. فإن حسَمتْ أدواءكم، وإلا فالسيف من ورائكم.. يا أهل مصر.. قد كنتم تُعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجوْر عليكم.. وقد وِليكم من إذا قال فعل.. فإن أبيتم درَأكم بيده، فإن أبيتم درَأكم بسيفه..

إن البيعة شائعة.. لنا عليكم السمع، ولكم علينا العدل".!!

* * *

إن للسلطة ضراوة لا تقاوم، إذا هى بسطت إغراءها ونفوذها على الحاكم يرى فيها غُنْمًا لا تضحية.. وزهْوا لا واجبًا..

ونحن لا نريد الطعن فى معاوية؛ فإن منهجنا أن نحترم كل الاحترام، مَن صحِبَ رسول الله ﷺ وصلى وراءه.. وجلس بين يديه.. وقاتل تحت لوائه.. مفوِّضين أمره فيما يكون له من خطأ إلى الله..

بيد أننا خلال قيامنا بواجبنا فى تحرِّى الحقيقة فى هذه القضية التى ندرسها، لا نملك إلا إبداء الأسف الشديد، والجزع الأشد لهذا النهج الذى سار عليه مؤسس دولة الأمويين.. لا سيما حين اتخذ افدح قراراته، وأكثرها ضراوة وبؤسًا.. ذلكم هو أخذ البيعة لولده - يزيد - وفرضُه على الدولة المسلمة وعلى الأمة المسلمة، الأمر الذى يعنينا الآن بحثه، والذى كان السبب المباشر والأوحد فى مأساة "كربلاء".. وفيما تلا "كرْبلاء" من أهوال شهدتها مكة وشهدتها المدينة على نحو أليم ووبيل.. هذه الأحداث التى كانت هى الأخرى سببًا مباشرًا فى ضياع الملك من بيت معاوية وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته، ثم انتقال هذا الملك إلى بطن من بطون بنى أمية، أولئك هم بنو مروان..

لقد اهتزت أعطاف "معاوية" بالإمارة والملك، أربعين عامًا كاملة.. عشرين عامًا، أميرًا.. وعشرين عامًا، ملِكًا..

أفما كان يكفيه ذلك، ثم يترك الأمر من بعده لاختيار المسلمين، ليكون فى ذلك على الأقل وفاء بالعهد الذى أبرمه مع "الحسن" رضى الله عنه والذى كان أهم شروطه للتنازل له عن الخلافة..؟؟

إن ذلك لم يحدث.. ولقد قرَّر معاوية.. بتدبير منه، أو بإيحاء من بعض مُشيريه، أو بهما معًا، أن يستبقى السلطان فى بيته وأسرته،

واختار لذلك أبعد الناس عن الصلاحية للأمر ولده "يزيد"..

فحين أحس خُمود صحته، ودنُوَّ نهايته، شرع علــى عجـل يفـرض ـ يزيد ـ على الناس ويهيئ له مكانه..

وبدأ بالمدينة حيث كان بها نفرٌ جليل من بقية الصحابة..

ولم يكد واليه عليها وقريبه فى نفس الوقت ـ مـروان بـن الحكـم ـ يعرض الأمر على المسلمين الذين احتشدوا فى المسجد الكبير، حتـى جابهَتْه مُعارضة رهيبة، لقد وقف "عبد الرحمن بن أبـى بكـر" رضـى الله عنه يقول لمروان:

"والله، ما الخيارَ أردتم لأمة محمد.. ولكنكم تريدون أن تجعلوهـا هِرَقليَّة، كلما مات هِرَقل قام هِرَقْل..".

وتلاه "الحسين" رضى الله عنه فرفض فى كلماتٍ قواطع هذا العبث بمصاير الإسلام والمسلمين.

وتلاه "عبد الله بن الزبير" رضى الله عنه فدَمْدَم علـى مـروان وعلـى معاوية بكلمات كألسنة اللهب..!!

وأبلغ أمر المعارضة إلى معاوية، فلم يحمله ذلك على إعادة النظـر فى قراره، بل دفعه إلى الإيغال فى سرعة إنجازه.

فأرسل إلى ولاته الآخريـن علـى بقيـة الأمصـار، آمـرًا إياهم أن يسوقوا الوفود إلى الشام كى تبايع ليزيد..

وشهدت الشام مهزلة البيعة ومأساتها على نطاق واسع، بعد أن أدَّى الذهب والسيف دورهما فى حمل الناس على البيعة.

ولكن موقف "المدينة" ظلَّ يؤرِّقه، فقرر السفر بشخصه إليها.

وهنـاك حـاول إقنـاع زعمـا ء المعارضـة ـ عبـد الله بـن الزبـيـر، والحسين بن على، وعبد الله بن عمر، فلما أعْيَته الحيلة لجأ إلى القـوة فى مظاهرة مسلحة عجيبة..!!

لكن الزعماء الثلاثة صمدوا ، ولم يتحرك منهم لسان ببيعة.. وأمـام مناورة الموت التى فاجأهم بها معاويـة، لاذوا بـالصمت، فاستغلَّ هـو صمتَهم وأذاع فى الناس أنهم مبايعون..!!

لقد برَّر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نشوب الخلاف والصراع من جديد بين المسلمين..

وإنه لتبرير يُدينه أكثر مما يشفع له..!!

فلماذا خشى الصراع والفتنة إذا هو لم ينقل الملـك إلـى يزيـد.. ولم يخشهُما إذا هو وسَّد الأمر لغير أهله وسلَّم قيادة الدولـة المسلمة إلى أكثر العالمين بُعدًا عن الصلاحية لها، وهو يزيد..؟؟!!

إن هذه النظرة تكشف بوضوح عن أن معاوية كان ينظر إلـى الأمـر على أنه ـ كما قلنا من قبل ـ سلطان بنى أميـة ـ أكـثر ممـا هـو سـلطان الإسلام وسلطان المسلمين..!!

ووضع المسألة علـى هـذا النحـو ـ وهـو وضـع صحيـح ـ يجعـل المقاومة أمرًا محتومًا وقدرًا مقدورًا..

ولقد بدأت المقاومة بامتناع "الحسين" وابـن الزبـير، وابـن عمـر، وابن أبى بكر، بالمدينة عن البيعة..

وبدأت بالتذمُّر الكالح الذى ملأ صفوف الجماهير فـى كـل مكـان والذى ارتفع به الصوت داخل الأمويين أنفسهم الذين كانوا يشـمئزون من يزيد، ويرون بين رجالهم من هو أحـق وأجـدر.. كذلـك شـاع علـى

ألسنة الذين بايعوا من عامَّة الناس مُكرهين..

ذلك أن "يزيد" كان شابًا عابثًا لاهيًا.. والتاريخ يصوره دائما بين بطانته، وهى بطانة سوء، يلهون، ويشربون، ويعربدون..

وحتى حين أراد أن يُضفى على سيرته بعض التصوّن والوقار، فأرسله إلى مكة حاجًا، ولم يُغنه ذلك شيئًا، فقد اصطحب يزيد معه لهوه وعبثه وبطانته..!!

ويزيد، قبل هذا، وبعد هذا، تنقصه كل مقومات الرجل المناسب للمكان المناسب.. فهو مُفلس إفلاسًا تامًا من كل ما كان لأبيه من دَهاء، وشخصية، وذكاء، ومقدرة..!

ففيم استخلافُه..؟ وبأى رُشد وأى ضمير، يُفرض واحد هذا شأنه على الإسلام وعلى المسلمين.؟!

ثم أين عهده مع "الحسن" رضى الله عنه على أن يترك الأمر بعده شورى، حيث يختار الناس من يرتضونه.؟!

لكنّ معاوية فعلها ـ غفر الله لمعاوية..

وفى العام الستين للهجرة مات، لينتقل الأمر من بعده إلى يزيد..

ويدأ يزيد عهده بإنفاذ الوصية التى تركها له أبوه قُبيل وفاته:

"إنى لا أخاف عليك سوى أربعة رجال:

الحسين بن على.. وعبد الله بن عمر.. وعبد الرحمن بن أبى بكر.. وعبد الله بن الزبير..

فأما الحسين بن على؛ فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه إليهم؛ فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه..

وأما عبد الله بن عمـر، فرجلٌ قد وقَذَته العبادة، ولا يريد الخلافة إلا أن تأتيه عفواً..

وأما عبد الرحمن بن أبى بكر، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح إلى طلبها، أو يُحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً..

وأما الذى سيجْثُم لك جُثوم الأسد، ويُراوغك روغان الثعلب، حتى إذا أمكنته فرصة وثبَ عليك؛ فذلك هو عبد الله بن الزبير.. فإن فعل وظفرت به فقطعه إربًا إربًا، إلا أن يلتمس منك صُلحًا.. فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بجهدك.. وكُفَّ عاديتهم بنوالك.. وتغمَّدهم بحلمك..

تُرى، هل كان معاوية يعرف لابنه هذا جُهداً، أو نوالاً، أو حلمًا يُعالج به الأمور..؟؟

على أية حال، فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل، وسيق الناس إليه يبايعونه مَلِكًا، بعد أن بايعوه من قبل أميراً..

واهتزَّ كيانُه فزعًا، تحت ضغط مشاعره الوجلة لوجود الحسين وابن الزبير وابن أبى بكر وابن عمر بالمدينة، فكتب على الفور إلى عامله هناك ـ الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ـ بهذا الأمر الحاسم:

".. أما بعد، فخُذْ حسينًا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر بالبيعة أخذاً شديداً، ليس فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام"..

واستنجد الوليد بمشورة قريبه مروان، وكان مروان واليًا على المدينة من قبل، ثم سَخِط قرار معاوية أخذه البيعة ليزيد، إذ كان يرى

نفسه بحكم سنه ومشيَخته فى بنى أمية أحق بها وأولى..

ولخّص مروان مشورته للوليد فى هذه الكلمات السوّد: ".. أما ابـن عمر، وابن أبى بكر، فلا أرهما يريان القتـال.. ولكـن عليـك بالحسين وعبد الله بن الزبير؛ إليهما فإن بايعا، وإلا فـاضرب أعناقـهما قبـل أن يذيع فى الناس نبأ موت معاوية؛ فَيثِب كل واحد منهما فى ناحية"..!

هكذا، وبكل يسر واستهتار يُطوّح مروان بالرقاب!!

اضرب أعناقهما..!!

هذا هو نهج الذين اغتصبوا حق المسلمين فى خلافتــهم، وأرادوا أن يجعلوه وقْفًا على أنفسهم وعلى ذراريهم حتى آخر طفل فيهم وآخـر رضيع..!!

ومروان هذا، الذى يُشير بقطــع الرقـاب، هـو الـذى سينتقل إليـه الملك بعد أربعة أعوام من مُلك يزيد.. وهـو الـذى سيظل الملـك فـى عَقِبه حتى يجىء العباسيون بعد عشرات من السنين، لا نـرى فيـها وفـى كل أولئك الحاكمين من هو للقداسَة أهل سوى "عمر بن عبـد العزيـز" رضى الله عنه وأرضاه.. هذا الخليفة العـادل الـذى سيَضجّ مـن مظـالم قومه وعائلته، ويبرأ إلى الله منها..!!

ونعود إلى الوليد بن عتبة وَالـى المدينـة، فـنراه يرسـل فـى طلـب "الحسين"، و"ابن الزبير"..

وفى طريقهما إليه يسأل ابنُ الزبير الحسين:

ـ تُرى فى أىّ أمر بعث إلينا هذه الساعة..؟

ويجيبه الحسين:

ـ أحسب أن معاوية قد مات.. وقد بَعث إلينا للبيعة..!

ويعودان أدراجهما دون أن يواصلا السير إلى الوليد.

فأما "عبد الله بن الزبير" فقد انتظر مجيء الليل، ثم حمل متاعه، وركب راحلته، وسافر إلى مكة..

وأما الحسين، فيأخذ نفرًا من أتباعه، ويسير بهم إلى الوليد في دار الإمارة، ويأمرهم أن ينتظروه خارج الدار، فإن سمعوا حوارًا غاضبًا بينه وبين الأمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الحسين إذا أريد به السُّوء.

بيد أن الوليد في هذا الموقف كان خيرًا من ألفٍ من طراز مروان..

ذلك أنه لم يكد يُنهي إلى "الحسين" نبأ وفاة معاوية، داعيًا إياه إلى بيعة يزيد، حتى قال له "الحسين" رضي الله عنه:

"إن مثلي لا يعطي بيعته سرًا، فاجمع الناس ليبايعوا، وأبايع على ملأ"..

ولا نستبعد أن يكون الوليد، قد أدرك ما في كلمات الحسين من مناورة شريفة، آثر أن يتغافل عنها، حتى لا يُلوِّث يديه بجريمة العدوان الذي أشار به مروان.

لذلك نراه، حين أصبح في اليوم التالي، وجاءه الخبر بأن الحسين رحل إلى مكة.. ولامَه مروان على نبذ مشورته.. نراه يقول يومها لمروان:

"أتشير عليَّ بقتل الحسين بن فاطمة، بنت رسول الله..؟؟ والله، إن الذي يُحاسَب بدم الحسين يوم القيامة لخفيفُ الميزان

عند الله"..!!

* * *

رحل الحسين إلى مكة.. ذلك البلد الحرام الذى يلتمس الناس فيه الأمْن والملاذ.

واصطحب معه أختيه "السيدة زينب، والسيدة أم كلثـوم" وإخوتـه "أبو بكر، والعباس، وجعفر" وأولاد أخيه "الحســن" وجميع مَن كـان بالمدينة من أهل بيته، عدا أخاه "محمد بن الحنفية" الذى آثـر البقـاء بالمدينة.

وكان قد سبقه إلى مكة كما ذكرنا، عبد الله بن الزبير.

كذلك كان قد سبقه إليها حَبْرُ الأمَّة "عبد الله بن عباس".

وفى مكة، استقر الحسين وآله.. وأقبل أهلها بل وأقبلت الوفود من خارجها على ابـن بنـت رسـول الله ﷺ تلتمـس منـه الحكمـة والـهدى والنور.

ولقد كانت مكة آنئذ أنْسب مكــان يُدبـر فيـه "الحسـين" خواطـره وتفكيره حول القضية الجليلة التى تشغله، والوضع الخطير الذى حـاق بالمسلمين..

فهنا.. وفى قديم الزمان، كان هاشم، وعبـد شـمس، أخـوان وُلـدا لعبد مناف.. ومِن هاشم، جاء النبى ﷺ، وعَلىّ، وبنو هاشم أجمعون..

ومن عبد شمس، جاء أمية، وأبو سـفيان، ومعاويـة، ويزيـد، وبنـو أميَّة كافَّة..

وهنا.. كان هاشم يملأ مكة والجزيرة برًا ومجدًا وكرمًا، فهو الـذى

يطعم الحجيج، ويحمى الذِّمار، ويرسل قوافله إلى الشام وإلى اليمن لتعود موقَرَة بالخير والرزق للناس، حتى قال فيه شعراء قريش يومئذ:

عَمْرو الذى هشَم الثّريد لقومه
قومٍ بمكةَ مسنتين عجِاف
سُنَّتْ إليه الرحلتان كلاهما
سفرُ الشتاء ورحلةُ الأصيافِ

بينما عبد شمس مُزمعُ أسفارٍ دائمًا لا يحمل تجاه قومه ما يجب من تَبعات..

وهنا.. شهدت مكة ذات يوم أروعَ مُنجزاتها الأخلاقية والسياسية يوم أقرَّت كل قبائلها "حِلْفَ الفضول".. ذلك الحلف كان مضمونه وفَحواه أن تُردَّ الحقوق إلى أهلها، وألاَّ ينتصر ظالم على مظلون، وأن يضحِّى المشتركون فيه بحياتهم إذا تعرضت العدالة لخطر..!!

ومِن عجب أن كل قبائل قريش وبُطونها، اشتركت يومئذ فى هذا الحلف ماعدا بنو عبد نوفل.. وبنو عبد شمس آباء الأمويين..!!

وهنا يستطيع "الحسين" أن يمد بصره فيرى الدار التى عاش فيها وبزَغ منها جَدّه العظيم "محمد رسول الله ﷺ" هاتفًا بكلمة الله، حاملاً مِعْوله الرشيد فى وجه وثنيَّة الحجَر.. ووثنية البشَر..!!

ويستطيع أن يُمدَّ بصره؛ فيرى "زمزم" التى حفرها جده "المطَّلب" امتثالاً لرؤيا صادقة، والتى كانت لقريش حياة وريًّا، وصارت للمسلمين تُراثًا ومَنْسكًا..

ويستطيع أن يمد بصره فيرى الدّور التى خرج منها مَهديون أبرار، آمنوا بالرسول ﷺ وآزروه فى دعوته ووحدته، وفى مقدمتها دار أبى

بكر.. ثم يرى الدّور التى خرج منها أولئك الذين سَـخِروا مـن دعوتـه، واضطهدوا أهله وصحبه، وفى مقدمتها دار أبى سفيان..!

وهنا.. يستطيع أن يرى ويسمع الأصداء الصادقـة البـاهرة لصـوت جده "أبى طالب" وهو يقول للرسول:

"يا ابن أخى، ادْعُ إلى سبيل ربـك مـا شـئت، فـوالله لا أسلِمُـك إليهم أبدًا..".

ثم يقف إلى جواره كالطَّوْد مضحِّيـا براحتـــه، وأمْنــه ومكانتـــه بين قومه..

كما يسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جدَّته "خديجة" وهـى تقول للرسول:

"والله لا يُخزيك الله أبدا"..

ثم تنهض إلى جواره فى وجه قريش واضعةً كل ثرواتها وجاهها فى خدمة الدين الحق الجديد..

وهنا.. يسمع الحسين بكل سمعه وقلبه كلمات جده الرسول الكريم ﷺ التى تركها للتاريخ الإنسانى بأسره قدوة ونبراسًا وهُدىً:

".. والله، لو وضعوا الشمس فى يمينـــى والقمـر فـى يسـارى،

على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يقضيـه الله، أو أهلـك دونه"..!

أجل.. هنا سيسمع الحسين صَداها.. ويتراءى له المشـهد، فيُفجِّـر فى نفسه بأسها، ونِضالها، وتُقاها..!!

ولسوف يسأل نفسه: ما هذا الأمر الــذى رفـض جـدّه النبـى ﷺ أن

يتخلَّى عنه ولو أوتِيَ الشمس والقمر وما بينهما..؟؟

ويجيبه قلبه: إنه كلمة الله ودينه.

ويعود يسأل نفسه: وأين دين الله اليوم، ومَن الذى يحمل لواءَه..؟؟

ويجيبه الواقع: إن دين الله اليوم فى مِحنة، إنه يتحوَّل إلى ملك عَضوض.. وإن الذى يحمل لواءه اليوم طاغية عربيد اسمه، يزيد..!!

يعود يسأل نفسه: وما المصير..؟؟

ويُجيبه وَعْيه ورُشده: المصير عودة الجاهلية وسيادة الوثنية، ودنُوْ ساعة هذه الأمة حيث يرجع كل ما بنَتْ وشادت ترابًا فى تراب..!!

ألم يقل جدّك الرسول عليه السلام:

"إذا وُسِّد الأمر لغير أهله، فانتظر الساعة".

فها هو ذا قد وُسِّد لغير أهله، بل لشر أهله".

ويعود سائلاً نفسه: وما واجبى الآن؟.

ويجيبه ضميره: المقاومة، الآن، وأبدًا.. حتى يفوز الحق، أو تهلِكَ دونه..!!

على هذا النحو لابد أن يكون "الحسين" قد أدار خواطره وتفكيره..

وفى رأينا أن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة فى وعيه ووجدانه، وكانت وليدة إدراكه السديد لحق الدين عليه واستعداده للتضحية فى سبيله.

وليست نتيجةً لموقف أهل الكوفة الذين أرسلوا إليه كُتبهم ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه، وليسيروا تحت لوائه إلى مقاومة يزيد.

أجل.. ما كان "الحسين" ليدع دين الله ودنيا الناس ألعوبة في يد يزيد..

بل كان سيبشر بالمقاومة، ويخلق ظروفها المواتية، ثم يضرب ضربته العادلة.

وسواء دعاه أهل الكوفة أم لم يدعوه؛ فلقد كان يهتدى إلى مسئولياته بنور إيمانه وبصوت ضميره.. وليس بتحريض قوة خارجية.

ولقد عرفنا رأيه القديم في صلح أخيه مع معاوية.. إذ كان يعارض هذا الصلح، معلنًا أن آل أبي سفيان لا عهد لهم ولا أمان.

فإذا كان هذا رأيه والخليفة بالأمس معاوية، فكيف يكون إذن والمسْتخلَفُ اليوم يزيد..؟!

ثم إن خروجه من المدينة إلى مكة، ورفضَه البيعة ليزيد يُشكلان إعلانًا لمبدأ المقاومة.

فهو يعلم أن يزيد لن يتركه حتى يبايع.. وهو لن يبايع أبدًا.. وإذا ستكون المجابهة بينهما أمرًا محتومًا.

ثم إن للحسين طبيعة جيَّاشة ثائرة، يربطها بالحق ولاءٌ وثيق وعجيب، وتستمد من فضائل الدين العالية، ومن تراث حسَبِه العريق زادًا لا يفنى من الصمود والمثابرة.!!

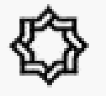
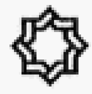
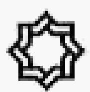
ولن يجد في كيانه ذرَّة تصبر على رؤية يزيد بن معاوية يجلس حيث جلس من قبل ـ أبو بكر ـ وعمر ـ وعثمان ـ وعلى.!!

إن ذلك يَعنى ضيَاعَ مقدَّسات عزيزة وغالية..

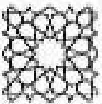
وإذا كانت الطبول تدق في دمشق، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبي سفيان..

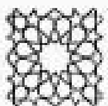
فلابد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة..

ولابد أن يجد المسلمون من يدرأ عنهم الطوفان..!!

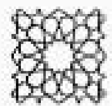
  

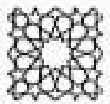
الفصل الخامس

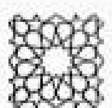




البطــــــــــل يتقـــــــــدم









تلك هى القضية تماما..

وهذه حقيقتها التى تجلّت أمام الحسين كفلق الصباح.. فهى ليست لغزاً، يحتاج إلى مناقشات تبحث له عن حلول..

ولا صفقة، ترتبط اهتماماتها بمغْنم أو مَغرم..

كما أنها ليست طموحا شخصيًا، يحتاج إلى موازنة بين فرص النجاح واحتمالات الإخفاق.

إنها قضية الحق وحده..

حقّ دين، وحق أمة، وحق دولة، وحق مصير.. فإما أن ينتصر هذا الحق، أو فليمُت الأبرار دونه..

ومن لقيادة الأبرار فى هذا المجال، كأبى عبد الله الحسين. خير ابنٍ لخير آباء.. وأكرم وارثٍ لبيت التضحية والبذل والفداء..؟!

إن ملايين المسلمين فى كل العصور والأزمان، يصلون عليه فى صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار.

أليس كل مسلم كان أو سيكون، يختم صلاته قائلاً:

"التحيّات المباركات والصلوات الطيبات لله..

السلام عليك أيها النبى، ورحمة الله وبركاته.

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين..

أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله..

اللهم صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد"..

وأليس الحسين من أولئك الآل؟

أليسَ هو درَّتهم الفريدة والمجيدة..؟

إذن، فإن لهؤلاء الذين يُصلون عليه عَبْر الزمان والأجيال حقًا عظيمًا سيقتضيه تضحيات عظيمة.!!

ومتى تكون التضحية، إذا لم تكن اليوم، ودين المسلمين يتحول إلى "مزرعة أموية".. وأمجادهم العظيمة يستولى عليها مخلوق عابث.. ومصايرهم الكبرى تُمسِك بها أيدى وُصوليين جُباة، وجلادَين طغاة..؟!

هكذا لم يكن للحسين بد من أن يقاوم، حتى لو لم يدعه من العراق داع، ولم يأته من الكوفة كتاب.. كل ما صَنعته وفود الكوفة وكُتبها له. أنها عجَّلتْ خروجه.

وهنا، لابد أن تنفى عن تفكيرنا وهما ردّده كثيرون، هو أن "الحسين" رضى الله عنه ذهب ضحية خدعة لم يحسن تدبُرها.. أو ضحية أنصار لم يُحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم..!

كلا، إن "الحسين" إنما ذهب شهيد إيمان قرَر مختارًا ومشتاقًا أن يكون شهيده وقُربانه..!!

والآن ونحن نواجه الوقائع والأحداث، سنرى كم كان في تصميمه وبطولته حكيمًا، وكيف خطَّط لواجبه ومسئولياته في رُشد، ونُهيً وسَداد..

* * *

فعندما جاءته كُتب أهل الكوفة تدعوه إلى القدوم عليهم لمبايعته،ولدفع العار الذى لحق الأمة باستخلاف يزيد، لم يُسارع بامتطاء راحلته.. بل رأى أن يبعث إليهم مبعوثًا فطِنًا وأمينًا يرى الموقف هناك على طبيعته، ثم يوافيه بالأنباء..

واختار للمهمة ابن عمه "مسلم بن عقيل بن أبى طالب" وحمَّله إلى الكوفة هذه الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن على، إلى مَن يبلغه كتابى هذا، من أوليائه وشيعته بالكوفة.

سلام الله عليكم..

أما بعد، فقد أتتنى كُتبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم ورغبتكم فى قدومى إليكم.

وإنى باعثُ إليكم بأخي وابن عمي وثقتى من أهلى "مسلم بن عقيل" ليعلم لى كنْهَ أمركم، ويكتب إلىَّ بما يتبين من جمعكم.. فإن يكُ أمركم على ما جاءتنى به كتبكم وأخبرتنى رسُلكم؛ أسرعت القدوم إليكم إن شاء الله تعالى"..

ومضى "مسلم" إلى الكوفة.. ولم يكد يستقر بها حتى سارع الناس

إليه يبايعونه على السير تحت لواءِ "الحسين" مهما تكن التضحيات.

وسارع جواسيس يزيد إلى "النعمان بن بشير" والى الكوفة وحاكمها يطلعونه على ما يدور ويجرى.

وكان "النعمان" رضى الله عنه صحابيًا جليلاً، فردَّ جواسيس يزيد خائبين، إذ قال لهم:

"إنى لا أقاتل إلا مَن يقاتلنى.. ولا أثِبُ إلا على مَن يثِبُ علىَّ، ولا آخذ بالظِّنة أحدًا"..

وأجابه أحدهم قائلا: "هذا رأى المستضعفين".. فزجره النعمان قائلا:

"لأن أكون من المستضعفين فى طاعة الله.. خيرٌ من أن أكون من الجبَّارين فى معصيته"..!!

وانصرفوا من حضرة النعمان يائسين، ليكتبوا إلى سيدهم يزيد يخبرونه أن "مسلم بن عقيل" استولى على أفئدة الناس، وأن "النعمان بن بشير" لا يُحرك ساكنًا.

وفى دمشق اجتمع يزيد مع مستشاريه.. وكان أبرزهم ذلك الذى يُسمَّى "سرجون"..

تُرى بم يشير مَجوسى كسرجون..؟؟

أشار بعزل "النعمان بن بشير" وتولية عبد الله بن زياد والى البصرة، واليًا على الكوفة أيضًا.

ولم يكن عجبًا أن يقع اختيار سرجون على ابن زياد بالذات، ذلك أن "مُرجانة" أمّ بن زياد، كانت هى الأخرى جارية مَجوسيَّة..؟؟!!

وابن زياد هذا، من أحط وأشقى من حملت الأرض علـى ظـهرها لا يفوق ولعه بالقتل وسفك الدماء، سوى ولعه بالقتل وسفك الدماء.

فى نفـس الوقـت، كـان الحسـين عليـه السـلام، قـد أرسـل مـولاه "سليمان" إلى البصرة حاملاً هذه الرسالة إلى نفر من زعمائها:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن على.. إلى مالك بن مسمع، والأحنف بن قيس، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، والمنذر بن الجارود..

سلام الله عليكم..

أما بعد؛ فإنى أدعوكم إلى إحياء معالم الحق، وإماتة البدعة والباطل؛ فإن تجيبوا تهتدوا سُبُل الرشاد"..

إن رسالة "الحسين" إلـى أهـل البصـرة، ترينـا كيـف كـان يعـرف مسئوليته ويمضى معها.. فأهل البصرة لم يكتبوا إليه ولـم يدعـوه إلـى بلدهم كما فعل أهل الكوفـة.. ومـع هـذا فـهو يكتـب إليـهم ويُعدّهـم للمجابهة المحتومة ـ ذلك أنه قرر أن ينهض بتبعـات دينـه وأمتـه، كـان قراره هذا آتيًا من أعماق روحه وضميره، وليس من حركة أهـل الكوفـة ودعوتهم إياه.

* * *

لم يكد مبعوثه "سليمان" يصل البصرة، ويسـلّم رسـالته لزعمائـها، حتى سارع أحدهم وهو المنذر بن الجارود إلى ابن زياد حيث أفْشى له سِرّها وأطلعه عليها.. وألقى ابن زياد القبض على "رسول الحسين" وفى وحشية تليق به، قام بقتله وصلبه.. ثم تهيأ للسـفر إلـى الكوفـة، ليباشـر مهمته المجرمة هناك.!!

وقبل رحيله، دعا أهل البصرة إلى اجتماع عام خطبهم فيه فقال:

"يا أهل البصرة.. إن أمير المؤمنين يزيد!! قد ولأني مع البصرة الكوفة، وإني سائر إليها، وقد خلّفت عليكم أخي عثمان بن زياد.. فإياكم والخلاف والإرجاف.. فوالله لئن بلغني عن أحد أنه خالف أو أرجف، فلأقتلنه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى.. والبريء بالمذنب، حتى تستقيموا أنا ابن زياد.. وقد أعْذرَ من أنذر"..!

هكذا تحدث إلى الناس بالبصرة حديث الطاغية.. على أن التجربة تعلمنا أنه ليس هناك أجبن من الطغاة.. وأن ما يتظاهرون به من بأسٍ شرسٍ وشجاعةٍ زائفة، إنما يستمدونَها مما يمسكون بأيديهم من سلطان..!!

فابن زياد هكذا، بكل طغيانه، وقسوته، وإجرامه، يخاف أن يدخل الكوفة سافراً منظوراً، فيدخلها متنكراً، ومُخفيًا سِحنته ووجهه وراء لثام وقناع..!

ومن المفارقات الباسمة، أن أهل الكوفة الذين كانوا ينتظرون مقدم "الحسين" على شوق، لم يكادوا يرون قافلة ابن زياد، حتى حسبوها موكب "الحسين" فراحوا يفسحون له الطريق هاتفين:

"مَرحبًا بابن رسول الله ﷺ .. قَدِمتَ خير مقدم"..!!

ولئن كانت هذه الحفاوة بالحسين قد ملأت نفس ابن زياد مرارة وحقداً، إلا أنها ألقتْ على قلبه الجبان كثيراً من الأمن، إذ اطمأن أنهم لم يعرفوه، وبالتالي لن يصلوا إليه بسوء.

وحين بلغ دار الإمارة، واحتمى بشرطتها وحرسها، راح ينصب شباكه ليقتنص رسول الحسين وابن عمه "مسلم بن عقيل" الذي كان

يمارس نشاطه الجليل فى هِمةٍ موفَّقة وناجحة.

* * *

كان عزل "النعمان بن بشير" عن الكوفة، وتولية ابن زياد مكانه نذيرًا رهيبًا لمسلم بن عقيل.. فبعد أن كان يجتمع بالناس فى غير تحرج ولا تخوف، راح يُغيِّر مقره، فيتنقل إلى دار أخرى، ويحيط نشاطه بكتمان كبير.

كانت الدار الجديدة التى انتقل إليها هى دار "هانئ بن عروة" من صَفوة أهل الكوفة وأشرافهم.

وكان ابن زياد قد اصطحب معه من البصرة بعض صفوتها وزعمائها، ومن بينهم "شريك بن الأعور".. وكان "شريك" شيعيًا يكتم إيمانه وولاءه، كذلك كان صديقًا لـ "هانئ بن عروة" الذى يتخفَّى "مسلم بن عقيل" فى داره..

ورغب "هانئ" إلى صديقه "شريك" أن ينزل عليه ضيفًا فى دراه فقبل دعوته، حيث التقى فيها بمسلم بن عقيل فبارك جهوده وجهاده وحثَّه على المثابرة.

وهنا نلتقى بصورة من عظمة آل البيت وأخلاقهم وشرفهم فى النضال والقتال ذلك أن "شريك بن الأعور" مرض وخف ابن زياد لعيادته حيث هو فى دار هانئ..

ورآها "شريك" نفسُه فرصة سانحة للإجهاز عليه والتخلص منه.

فاتفق مع "مسلم بن عقيل" أن يفاجئ ابن زياد عندما يجيء إليه، ويضربه بسيفه ضربة تُريح منه البلاد والعباد.

ولكن ابن زياد جاء، وجلس، وطالت جلسته، ثم غادر الدار دون

أن يناله سوء..

وبُعيد انصرافه عاتب "شريك" مُسلمًا" وسأله: لماذا لم تُنجز ما اتفقنا عليه وتتقرب إلى الله بقتله..؟ فأجابه "مسلم":

"لقد منعنى من ذلك أمران: أولهما: كراهية هانئ أن يُقتل فى داره.. وثانيهما: أن رسول الله ﷺ نهانا عن الغِيلة، وقال: لا يَفْتِك مؤمن"..!!

هذا هو الخلق الشريف الذى يُناضل له أهلُ البيت الكرام!!

أما "مسلم" فقد واصل أخذ البيعة سرًا حتى بايعه ثمانية عشر ألفًا.

وآنئذ، وأمام تلك الأعداد الكثيرة من الأنصار والمبايعين، أرسل "مسلم إلى "الإمام الحسين" يبشره بما تمَّ، ويدعوه للقدوم..

وآنئذ أيضًا، كان ابن زياد قد جُنَّ جنونه لإخفاقه فى القبض على "مسلم" وفشل شرطته فى معرفة مكانه، هنالك لجأ إلى حِيله الخبيثة، فاختار واحدًا من مواليه، واسمه ـ معقل التميمى ـ وأعطاه صرة بها ثلاثة آلف درهم، وأمره أن يجوب خلال الكوفة، مُجردًا من نفسه شخصًا غير شخصه.. زاعمًا ومتظاهرًا بأنه واحد من شيعة "الحسين" يريد أن يأخذ مكانه بين صفوف أنصاره، ويريد أن يُسهم بما معه من مال فى شراء سلاح لأولئك الأنصار!!

وبعد طوال تطواف، وطول تعسُّس، اهتدى الجاسوس إلى ضالته المنشودة، فقد تعرف إلى رجل صالح من أصحاب "مسلم" قاده أخيرًا إلى مكانه ومقره..

وأتقن الخبيث دوره حتى خُدِعوا به جميعًا، وأصبح أثيرًا لديهم،

يزور "مسلما" كل يوم حيث يقضى معه النهار كلــه.. ثـم يقضـى الليـل بأجمعه مع ابن زياد، ناقلاً إليه الأخبار والأسرار..

وحين تمكّن ابن زياد من قنصه الثميــن، أرسـل فـى طلـب "هـانئ" وفاجأه قائلا: "إيه يا هانئ بن عروة، ما هذه الأمور التى تحاك فى دارك لأمير المؤمنين (!!)، جئت بمسلم بن عقيل وأدخلته دارك وجمعــت لـه السلاح والرجال، وظننت أن ذلك يخفى علىّ"..

كانت المفاجأة أليمة الوقع على هانئ.. فرأى أن يُخادع ابـن زيـاد بالإنكار ريثما يستعد لمجابهته التى أصبحت فوريَّتُها محتومة..

لكن ابن زياد أذهله بمفاجأتــه الثانيـة، فدعـا جاسوسـه ـ معقـلا ـ الذى انتصب أمام "هانئ" كليل الشتاء طويلا بــاردا وسـأله ابـن زيـاد أتعرف هذا؟ وسقط فى يد هانئ وأدرك كل شىء.. وسرعان ما ســيطرت رجولته على الموقف فى لحظة، وصاح بابن زياد:

"أجل أعرفه..

وإن "مسلما" فى دارى، وهو ضيفى، ولن أسلمه أبدًا"!!

وجُن جنون الطاغية، فنادى جلاَّديه وأمرهم أن ينزلوا به كل عذاب دون القتل حتى لا يستريح بالموت!!

وتناوشه المجرمون، يكسرون أنفه، ويمزقون لحم وجهه، ويهشـمون عظامه، وهو صابر مُحتسب..!!

ولما شفى ابن زياد نفسه المظلمة بتعذيبه، أمرهــم أن يخرجـوا بـه إلى السوق ويضربوا عنقه..

وطار خبر مصرعه واستشهاده إلى "مسلم بن عقيــل" فجمـع رجالـه وأنصاره، وسار بهم إلى قصر الإمارة حيث ضربوا حوله حصاراً رهيبًا.

لماذا لم يضرب "مسلم" ضربته من فوره..؟

لماذا لم يقتحم القصر على ابن زياد، وقد كان معه ساعتئذ من الأنصار المسلمين أضعافُ الحرس الذين يحرسون الطاغية؟؟

لماذا لم يستغل تلك الثورة العارمة التى كانت تشتعل فى أنفس الناس نقمة وغضبًا لمقتل "هانئ بن عروة"..؟؟

هنا، ينجو ابن زياد مرة أخرى من قتل مُحقَّق بسبب أناة "مسلم" وفضائله!!

فـ "مسلم" يعلم أن "الإمام الحسين" إنما أرسله ليأخذ له البيعة ولم يأذن له بقتال..

وهو حريص على أن يلتزم الحدود التى رسمها له ابن عمه وقائده.!

وهكذا قضى اليوم كله مكتفيًا بالحصار الذى ضربه وأحكمه.

بينما قضى ابن زياد ومن معه فى القصر يومهم فى نسْج الشباك وإعمال الحيلة، فأوعز إلى بعض زعماء الكوفة وأشرافها الممالئين ليزيد، والذين كانوا معه داخل القصر، على أن يُطِلُّوا على المحاصرين ساعة الغروب، ويخبروهم أن جيش الشام فى طريقه إلى الكوفة سيصلها غدًا أو بعد غد.. وسيحيل أحياءها قتلى، ودورها تُرابًا.. ففعلوا ما أمرهم به ابن زياد، وأتقنوا عملية بثّ الرعب فى القلوب، ثم نصحوا الثوار أن ينصرفوا على أن تعالج الأمور فيما بعد بالتفاهم والمفاوضة..

وانصرف الثوار ـ بعضهم صرفه الفزع.. وبعضهم صرفه احتمال الوصول إلى تفاهم يحقن الدماء..!!

وفى الصباح انبثت شرطة ابن زياد فى طول الكوفة وعرضها باحثين

عن "مسلم بن عقيل" حتى عثروا عليه فى إحدى الدور، فقاومهم وحــده بسيفه وعزمه، ولكن دون جدوى..

وحُمِل إلى الطاغية، حيث وقف أمامه صامتًا ورافضًا أن يُلقى عليه السلام.

وسأله ابن زياد: أتُراك ترجو الحياة والبقاء..؟؟

فأجابه "مسلم":

"إذا كنت تريد قتلى، فدعنى أوصِ إلى بعض الذيـن هنـا مـن قومى"..

أجل.. لم تشغله حياته.. إنما تشغله حياة ابن عمه "الحسين" الذى أرسل إليه من قبل يدعوه للقدوم وهو الآن فى طريقه إلى الكوفة!!

كما تشغله ديون اقترضها منذ قدومه، حيث أسـهم بـها فـى شـراء العتاد والسلاح..!!

وأجابه ابن زياد إلى طلبه، فأمر ـ عمر بن سعد ـ أن يستمع لوصيته.

وأوصاه "مسلم" فقال:

"إن علىَّ بالكوفة دينًا اقترضه، فإذا قتلت فبـع سـيفى ودرعـى، وخُذ من غلّتى بالمدينة حتى تقضيه عنى.. وإنـى قـد أرسـلت إلى "الحسين" أخبره أن الناس ينتظرونه، وأدعوه للقـدوم، ولا أراه إلا مُقبلاً. فابعث إليه من يردّه ويخبره أن أهـل الكوفـة لا عهد لهم"..

ثم أسلمه الطاغية لجلاّديه، فضربوا عنقه.. ثم رمـوا رأسـه الكريـم من حالق إلى قارعة الطريق.. وأتبَعوا الرأس الجسد..

ثم انصرفوا إلى لهوهم ومرحهم، فقد كانت الليلة ليلة العيد.!

وفى الصباح صلَّى "ابن مرجانة" فى المسجد الجامع صلاة عيد الاضحى.. ثم أمر برأس "مسلم بن عقيل" ورأس "هانئ بن عروة" فغُرسا فى أسنَّة الرماح ثم أرسلها إلى الشام، هدية لمن يدعوه أمير المؤمنين..!!

* * *

فى الوقت الذى كان رأس "مسلم وهانئ" يقطعان الفيافى من عراق ابن زياد، إلى شام يزيد.. كان "الإمام الحسين" يقطع طريقه من مكة إلى الكوفة، دون أن يعلم بعد، ما وقع بها من أهوال!!..

وكان قبل خروجه قد صمد لمعارضة عاتية من بعض أهله وأصحابه الذين خشوا عليه عواقب الخروج.

فهذا "عبد الله بن عباس" رضى الله عنه يُجرى معه حوارًا طويلاً يتوسل إليه خلاله كى يبقى حيث هو.

يقول له "ابن عباس":

"يا ابن عم.. إنه قد أرجَف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيِّن ما أنت صانع؟".

فيجيبه "الحسين":

"إنى قد أجمعت المسير فى أحد يوميَّ هذين إن شاء الله تعالى".

ويعود "ابن عباس" ليقول له:

"إن كانوا قد دعوكَ إليهم بعد أن عزلوا أميرهم، ونفوا عدوهم، ووطَأوا أكناف بلادهم، فسِرْ إليهم.. وإن لم يكونوا فعلوا، فإنهم إذن يدعونك لفتنة وقتال.. وإن أهل الكوفة لا

عهد لهم، وإنى أخشى عليك الهلاك..

أقم بهذا البلد حيث أنت.. وإذا كنت لابد خارجًا، فاذهب إلى اليمن، فإن به حصونًا وشِعابًا، ولأبيك به شيعة"..

ويزداد "الحسين" تصميمًا ويقول:

"يا ابن عم.. إنى لأعلم أنك ناصح مُشفِق ولكنى قد عزمت على المسير"..

وتضيق الأرض بابن عباس، وتحتدم أعصابه ويقول للحسين:

"لولا أن يُزرِيَ الناس بى وبك، لشبَّثْتُ يدى فى رأسك فلا أدعك تذهب..

ولكن إذا كنت لابد سائرًا، فلا تسر بأولادك ونسائك، فإن أخشى أن تُقتل وهم ينظرون إليك كما قُتل عثمان"..

وهذا "عبد الله بن عمر" لا يعلم بسيرته إلا بعد خروجه، فيمتطى ظهر راحلته، ويقطع الطريق وراءه وثبًا، حتى يلحق به على بعد ثلاثة أيام من مكة.

ويسأله: أين تريد؟

فيجيبه: الكوفة، هذه كُتبُ أهلها وبيعتُهم، وإنى ذاهب إليهم.

فيقول له ابن عمر:

"إنى محدِّثُك حديثًا..

إن جبريل أتى النبى ﷺ، فخيَّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا.. وإنك بُضعة من رسول الله ﷺ.. والله ما يَليها أحد منكم أبدًا، وما صرفها الله عنكم، إلا للذى هو خير لكم".

ولكن "الحسين" لا ينقص عزمه، فيضمه "ابن عمر" إلى صدره ويقبله ويقول وهو يبكى:

"أستودعك الله مِن قتيل"..!!

كذلك كان "أبو سعيد الخُدرى" صاحب رسول الله ﷺ قد حاول ثنْيَه عن عزمه قبل خروجه من مكة، وجلس يقول له:

"لقد سمعت أباك يقول وأنا معه بالكوفة: والله لقد مللْتُهم وأبغضتهم، فما لهم ثباتُ على أمر.. ولا صبرُ على السيف.. ومن فاز بهم، فاز بالسهم الأخْيَب"!!..

كل تلك المحاولات الحريصة على سلامته وحياته لم تلن قناه ولم توهن له عزما.

ذلك أن القضية التى خرج البطل حاملا لواءها، لم تكن قضيةً شخصية تتعلق بحق له فى الخلافة.. أو ترجع إلى عداوة شخصية يُضمرها ليزيد.. كما أنها لم تكن قضية طموح يستحوذ على صاحبه ويدفعه إلى المغامرة التى يستوى فيها احتمال الربح والخسران..

كانت القضية أجلّ، وأسمى، وأعظم..

كانت قضية الإسلام ومصيره، والمسلمين ومصيرهم..

وإذا صمت المسلمون جميعهم تجاه هذا الباطل الذى أنكره البعض بلسانه، وينكره الجميع بقلوبهم، فمعنى ذلك أن الإسلام قد كفَّ عن إنجاب الرجال..!!

معناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الانتماء لهذا الدين العظيم.

ومعناه أيضًا، أن مصير الإسلام والمسلمين معًا، قد أمسى معلقًا

بالقوة الباطشـة، فمـن غلـب، ركِـب.. ولـم يعـد للقـرآن، ولا للحقيقـة سلطان..!!

هذه هى القضية فى روْع الحسين..

وبهذا المنطق أصر على الخروج..

ومعنى آخر نبيل، أفصح عنه فى حواره مع ابـن عبـاس حيـن كـان يُلح عليه أن يبقى فى مكة، فقال له:

"إنى أخاف أن تُستباح بسببى"..!!

إنه برفضه مبايعة يزيد، وتصميمه على مقاومته، يرى المجابهة أمـرًا محتومًا..

ولم يُرد لهذه المجابهة أن تقع فى البلد الحرام، فهو على بينـة مـن سفالة خصومه.. وهو يعلم أنهم لـن يتورعـوا عـن هـدم المسـجد ذاتـه والكعبة ذاتها إذا اضطرهم القتال لذلك..

ثم إن أهل الكوفة قد دَعوه، ووثّقت دعوتهم بكتاب ابن عمه "مسلم بن عقيل" فقد صار لزامًا عليه وفْق اقتناعه بعدالة قضيته أن يُسارع إلـى تلك الجبهة التى أعدّت نفسها لمناصرته والمقاومة معه.

ولكن، ماذا عساه يصنع، حين يعلم أن ابن عمـه قُتِـل.. وأن الذيـن بايعوه قد لاذوا بالفرار..؟

لن يصنع شيئًا سوى المضى مع عزيمته وعزمه.. ذلك أنه لـم يخـرج ليُحرز نصرًا مضمونًا.. بل خرج ليؤكد حق الإسلام فى حماية نفسه مـن الضلال والإفك، وليُكفّر فى تضحية مجيدة عـن خطيئـة الصمـت التـى اقترفها الناس طائعين، أو مكرهين..!!!

وليكن بعد ذلك ما يكون!!

إن الذى يعنيه من ناحية الجوهر، هو أن يؤدى ما رآه واجبًا مقدسًا عليه نحو دينه ونحو الحق.

والذى يعنيه من ناحية الشكل، ألا تدور المعركة بينه وبين يزيد فى مكة فيكون سببًا فى استباحة حرمتها وقداستها.

"لأن أُقْتَل فى أى مكان من الأرض، أحب إلى من أن أقْتَل هنا، فيُستباح البلد الحرام بسببى"..!!

وهكذا طاف بالبيت الحرام، مؤديًا له التحية التى لم يكن يدرى أنها تحية الوداع!!

ثم تصَدَّر القافلة التى انتظمت أهله المباركين من زوجات، وأخوات، وإخوة، وأبناء عمّ، وأبناء إخوة.. كما انتظمت نفرًا من أنصاره وصحبه..

ولقد اصطحب معه من أهله كل هذا الجمع؛ لأنهم ـ غالبًا ـ تشبَّثوا بالرحيل معه.. ولأنهم وَفْق التدبير الذى كان مرسومًا سيقيمون فى البيوت التى ستعَد فى الكوفة، قريبين منه وتحت عينيه ورعايته.. ولأنه أخيرًا ـ وربما كان هذا أهمّ دواعى اصطحابهم معه ـ خشِىَ حين يشتبك مع يزيد فى قتال، أن ينتقم منه فى شخص أهله هؤلاء من زوجات وإخوة وأخوات، فيهاجم مكة، ويستبيحها بسببهم، الأمر الذى كان "الحسين" يخشاه دائمًا ويتوقاه..!!

* * *

ومضى البطل إلى غايته..

وأخذت النُّذرُ تلقاه على طول طريقه.. ففى أول الطريق لقيه الفرزَدَق الشاعر قادمًا من الكوفة.

وسأله "الحسين": "كيف تركت الناس من ورائك"؟

فأجابه الفرزدق: "تركتهم، قلوبهم معك.. وسيوفهم مع بنى أمية".

إنه نذير من رجل له بالأمور فِطنة وبصر، لكن البطل العظيم لا يزيد على أن يتلو الآية الكريمة:

﴿لله الأمر من قبلُ ومن بعد﴾..!!

ويمضى فى طريقه.. وبعد أيام يلقاه "عبد الله بن مطيـع" قادمًا هـو الآخر من العراق، فلا يكاد يرى "الحسين" حتى يتعلَّـق بثيابـه صارخًـا وراجيًا أن يعود، قائلا له:

"أناشدكُ الله ألا تذهب للكوفة، فوالله لئن أتيتها لتُقتلن".

فما يزيد على أن يتلوا الآية الكريمة:

﴿قلُ لن يُصيبنا إلا ما كتَبَ الله لنا﴾..!!

ويستأنف السير مع قَدْره وقدرَه..

وبعد مرحلة أخرى من الطريق يلقاه رجل مـن بنـى اسـد، قـادم مـن الكوفة أيضًا، فيسأله "الإمام" عن أخبارهم.

فيجيبه الرجل: لقد قُتل "مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة"..!!

نبأ يهد الجبال..

ولكن، من هو بإيمانه أقوى من الجبال، ماذا تكون ردُودُ فعـل هـذا النبأ الرهيب لديه..؟

أرسل بصره فى الأفق البعيد، ثم قال:

"إنَّا لله، وإنا إليه راجعون. عند الله نحْتسبُ أنفُسـنا ولا خـيرَ فـى العيش بعد هؤلاء"..!!

إن مصرع "مسلم وهانئ" كان كافيًا لصرف "الحسين" عن غايته، لو أنه كان في موقفه وخروجه إنما يستمد شجاعته، وجسارته من مساندة أهل الكوفة له.. وليس من إيمانه، واقتناعه، وضميره .

فمعنى قتل "مسلم وهانئ" أن الجبهة كلها قد انهارت، وأن أهل الكوفة - على أحسن الظنون بهم - قد باتوا عاجزين عما كانوا قد جنَّدوا أنفسهم له.

وهذا كاف لكي يَلْوى "الحسين" زمام قافلته ويعود.

لكن تصميمه الوثيق يقوده .. وقدَره العظيم كان يناديه..!!

سار - رضى الله عنه - يقطع الصحارى المتلظِّية، مجتازًا في مشقَّة وكبد، أغوارها ونُجودها.. مُعانيًا لفْحَها الضَّارب كريح السَّموم، حتى بلغ مكانًا يُدعى "بطن الرّمَّة" فحط رحاله، وضرب خيامه ليستريح ومن معه..

ثم كتب لأهل الكوفة كتابًا يخبرهم أنه في الطريق إليهم، وأعطى الكتاب واحدًا من أصحابه هو: "قيس بن مسهر الصيداوى" وأمره أن يسبقه به إلى الكوفة.

ومضى "قيس" لسبيله.. بيد أنه لم يكد يبلغ القادسيَّة حتى لقيته قُوات ابن زياد، فاعتقلته وصحبته معها إلى الكوفة.

وهنا نرى مشهدًا بطلا ، لرجل بطل!!

فقد أمره ابن زياد أن يُشرفَ على الناس من شُرفة قصره، ويلعن "الحسين" .. ويعلن على الملأ أنه - حاشاه ثم حاشاه - كذاب وابن كذاب!!

وتظاهر "قيس" بالطاعة، وصعد مع الحرس إلى حيث أراد ابن

مرجانة..

ثم ألقى على الجموع التى جمعوها وحشدوها نظـرة وابتسـامة ثـم صاح:

"أيها الناس..

"إن "الحسين بن على" من خير خلق الله، فـأجيبوه وانصُـروه.. وإن الكذاب بن الكذّاب، هو عبيد بن زياد؛ فالعنوه والعنوا أباه"..!!

هل تستطيع كل فصاحة البشر، أن تعلق على هذا الموقف بثنـا ء أو إطراء، أو تمجيد..؟؟!!

كلاًّ..

فلنلق نظرة مُزدرية على ابن زياد؛ لنرى مـا أنـزل بـه موقـف "قيـس" العظيم من خزى وإذلال وسُعار..

لقد جُن كـالكلب المسـعور، وراح يلعـن ويرجُـم شـياطينه لأنـهم أمهلوه حيًا حتى أكمل عبارته القاصمة.

ثم أمرهم أن يُلقوا به حيًا من أعلى سور القصر، فقُـذف بـه، حيـث اندقّت عظامه وغربت حياته..!![1]

لم يعلم "الحسين" بمصير "قيس" بعد..

ولقد استأنف سيره ومسراه حتى انتهى إلـى مكـان يُدعـى ـ زرود ـ وهناك أبصر فسطاطًا مضروبًا. فسأل عنه فعلم أنه لـــ "زهـير بـن القيـن" فأرسل "الحسين" فى طلبـه، فتثـاقل أول الأمـر، ثـم ذهـب إلـى لقائـه ضَجِرًا..

---

[1] هناك رواية تاريخية أخرى تقول: إن صاحب هذا الموقف، هو "عبـد اللـه بـن يقطر" أخـو "الحسين" من الرضاعة.

وحين التقيا، أسَرَّ "الحسين" إليه حديثًا، لم يكد الرجل يسمعه حتى تهلّل وجهه، وامتلأ غبطة وبِشرًا ..!!

ثم سارع فنقل فسطاطه إلى جوار فسطاط "الحسين" وقال لمن كان معه من أهله "مَن أحبَّ منكم أن يتبعنى، وإلاَّ فإنه آخر العهد بيننا". ثم التفت إلى زوجته وقال لها: "أما أنت، فالحقى بأهلك، فإنى لا أحب أن يصيبك بسببى سوء" ..

وانصرف أقرباؤه عائدين إلى موطنهم، مصطحبين معهم زوجته..

ترى ماذا قال له "الحسين" حين ناجاه..؟!

هل وعَده بمنصب، أو مَغنم..؟؟

لو كان ذلك، ما سرَّح زوجته، ولا قال للذين كانوا معه مُودِّعًا إياهم: "إنه آخر العهد بيننا" ..

ثم بأىِّ مَغنم يَعِده "الحسين" وقد جاءته الأنباء بمقتل رسُله، وشراسة عدوه..؟؟

أغلب الظن أنه حدثه عن قضيته العادلة، ثم ختم حديثه معه قائلا: تلك هى القضية، ففيم إبطاؤك عن الجنة..؟!!

وتابعت القافلة سيرها، كاسِبَة هذا النصير الجديد، ومنتظمة رجالاً آخرين كانوا ينضمون إليها خلال عُبورها بقُراهم وخيامهم عَبْر الطريق الطويل..

وبعد مسيرتهم من جديد، أبصروا فارسًا يُثير النَّقْعَ، ويطوى الأرض..

لقد كان رسول ـ عمر بن سعد ـ الذى أوصاه "مسلم بن عقيل" قبل مقتله بأن يرسل للحسين يخبره بما حدث، وينصحه بالرجوع..

لم يبق فى الأمر إذن شك ولا ريب..!!

ولم يدر فى خاطر الحسين أدنى تـردّد، بـل انتضـى عزمـه وواصـل سيره..

كل ما هنالك، أنه أعفى أولئك الذين تطوّعوا لنصرتــه مـن رجـال القبائل التى مرّ بها خلال سفره..

لقـد انضمُّوا إليـه علـى أمـل النصـر.. أمـا الآن فـالأمل فـى الاستشهاد وحده..!!

ومضى فى صحبة أهله، وخاصّته، والنصير الجديد والعظيم "زهـير بن القين" ..

* * *

كان ابن زياد قد فرض حول الكوفة حصاراً مُحكمًا، فلا يخرج مـن أهلها أحد، مَخافة أن ينضموا لموكب البطل القادم إلى الكوفة.

ولم يأذن لأحـد مـن أهلـها بـالخروج إلا إذا كـان ذاهبًـا للحـج، شريطة ألا يكون يحب "الحسين" أو "التشيُّع له"..!!

وفى نفس الوقت، أطلق من وراء مشارفها وحدودها البعيدة طلائعه وسراياه، آمراً إياها أن تتربص بقافلة "الإمام الحسين". فإذا التقت بـها إحداها احتجزتها حيث هى، ثم أرسلت بالخبر لابن زياد.

وعند إحدى القـرى الرابضـة علـى حـدود العـراق، التقـى ركـب "الإمام" بإحدى تلك الطلائع.

كانت تضم ألف فارس، تحت إمرة "الحر بن يزيد التميمى".

ولم يكد "الحسين" يراهم قادمين نحوه، يتصببـون عرقًـا مـن وقـدة الحر وقد تيبَّسَتْ شفاههم من الظمـأ، حتـى أمـر فتيانـه أن يسـتقبلوهم

بالماء، فشربوا حتى رَوَوْا، ثم جلسوا فى ظلال خيولهم.. وأذن مؤذن لصلاة الظهر، فسأل "الحسين" الحر بن يزيد أتصلى بأصحابك وأصلى بأصحابى..؟

وأجابه الحر قائلا: "بل نصلى جميعًا بصلاتك"..

ومضى الوقت بعد الصلاة فى حديث وتحاور.. ثم صلوا العصر حين جاء موعده. واستأنفوا بعد الصلاة الحوار قال "الحسين" لهم:

"إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم، وقدِمَت علىَّ رسُلكم.

فإن أعطيتمونى ما أطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مصركم، وإن تكن الأخرى انصرفت عنكم".

ولكن ـ الحر بن يزيد ـ أنبأ "الحسين" رضى الله عنه، أنه لا يدرى من الأمر شيئا، وأنه كلف من أمير الكوفة والبصرة ـ عبيد الله بن زياد ـ بمهمَّة محددة، هى انتظار ركب "الحسين" حين يجىء، ثم قيادته إلى ابن زياد بالكوفة..

ابن زياد بالكوفة..؟؟!!

يالهوان الدنيا حين يُمسك بمقاليدها السِّفْلة، وتُهيضُ فيها أقدارُ الكرام..!!

قال الحسين: "الموت أدنى إليك مما تريد"..!! ثم أمر أصحابه فحملوا متاعهم، وركبوا رواحهم، ثم تقدمهم فى المسير منصرفًا عن الكوفة، مغيِّرا اتجاهه..

لكن "الحر بن يزيد" أمر فرسانه فقطعوا عليهم الطريق.

وصاح به الحسين: ماذا تريد..؟

قال الحر: أن تصحبنى إلى ابن زياد.

قال الحسين: إذن والله لا أتبعُك..

وأجابه الحرّ: إذن والله لا أدعُك..

وصاح الحسين: إنها الحرب إذن..!!

وهنا لانتْ عريكة الحرّ بن يزيد فقال: إنى والله لا أريد قتالك ولم أومر به، وإنى لأرجو أن يرزقنى الله فيك العافية، ولا ابتلى بشىء من أمرك. ولقد أمرت إن أنا لقيتُك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد، فإن رأيت فاتّخذ طريقًا لا تُدخِلك الكوفة ولا تردّك عنها حتى يأتينا رأى الأمير".

ومضى ركب "الإمام الحسين" يضرب فى تلك الرقعة من الأرض، يتيامن، مرة، ويتياسر أخرى. وفرسان ابن زياد بقيادة الحرّ يذودون الركب عن البادية كلما همَّ أن يُدلف إليها ويدفعونه تجاه الكوفة فى رفق..

ولم يكد الرُّكب يبلغ "نينَوى" تلك القرية التى قيل إنها كانت موطن النبى "يونس" عليه السلام، حتى تراءى لهم من النَّقع المثار، راكب يغذّ السير ويطوى الرمال.. ولبثوا مكانهم ينتظرون، فإذا هو رسول ابن زياد للحر بن يزيد يحمل إليه كتابًا يقول فيه: "... أما بعد، فاشدد على "الحسين" فى المكان الذى يوافيك عنده كتابى.. ولا تُنزله إلا بالعراء، فى غير حصن وعلى غير ماء.. وقد أمرتُ رسولى ألا يُفارقك حتى تأتينى بإنفاذ أمرى، والسلام"..!!

وتلا ـ الحر ـ الكتاب ثم ناوله "الحسين" فتلاه.. وأراد الحسين أن يستأنف سيره متجهًا صوب مَسيل ماء، فمنعه ـ الحرّ ـ الذى كانت

تحاصره نظرات الرقيب الوافد من عند ابن زياد.. غيَّر "الحسين" اتجاهه، وسار بركبه والفرسان عن جانبيه.

ولكن إلى أين..؟

لقد خشِيَ الحرّ أن تُفْلِت الفرصة منه، فتصدّى للركب السائر وأصرَّ على النزول حيث انتهت خطواته..

ونزل الركب من فوق رواحله.

وألقى الحسين بصره على الفضاء الموحش حوله..

ثم سأل: ما اسم هذا المكان..؟

قالوا: اسمه كَرْبلاء..

فاختفى تفاؤله وراء إحساسٍ بالجزع، وتذكرَّ ذلك اليوم الذى تحدثنا عنه من قبل.. يوم كان "الإمام على" فى طريقه إلى "صِفِّين" فوقف على نفس المكان، وقال:

"هُنا، محطّ رحالهم، ومُهراقُ دمائهم"..

تذكرَّ "الحسين" المشهد كله، فقد كان يومئذ مع أبيه.

وذاب الوجود من حوله فى لحظاتِ تأملٍ حارة، صاهرة..

كَرْبلاء..؟؟!!

ها هى ذى بين نُبوءة الأمس، وواقع اليوم، ومصير الغد!!

أىّ سر للقدر، ينْشُره ويطويه.. يُظهره ويُخفيه..؟!

وأيَّة حكمة إلهية، تقود حياتنا بين مطالعها ومغاربها مُذعِنَةً لقدَرِها الحكيم، وتقديرها العليم..!!

لقد راح البطل يستعيد بخواطره ذلك اليوم، وتلك الواقعة، وتلك النبوءة..!!

وراح يهز رأسه المضيء فـي حركـة متأمِّلـة، كمـن أدرك الحكمـة وطالع المصير..

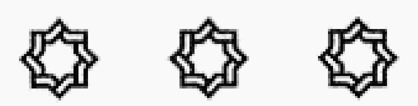
وارتسمت أمام مخاطره بحروف كِبار آية القرآن العظيم:

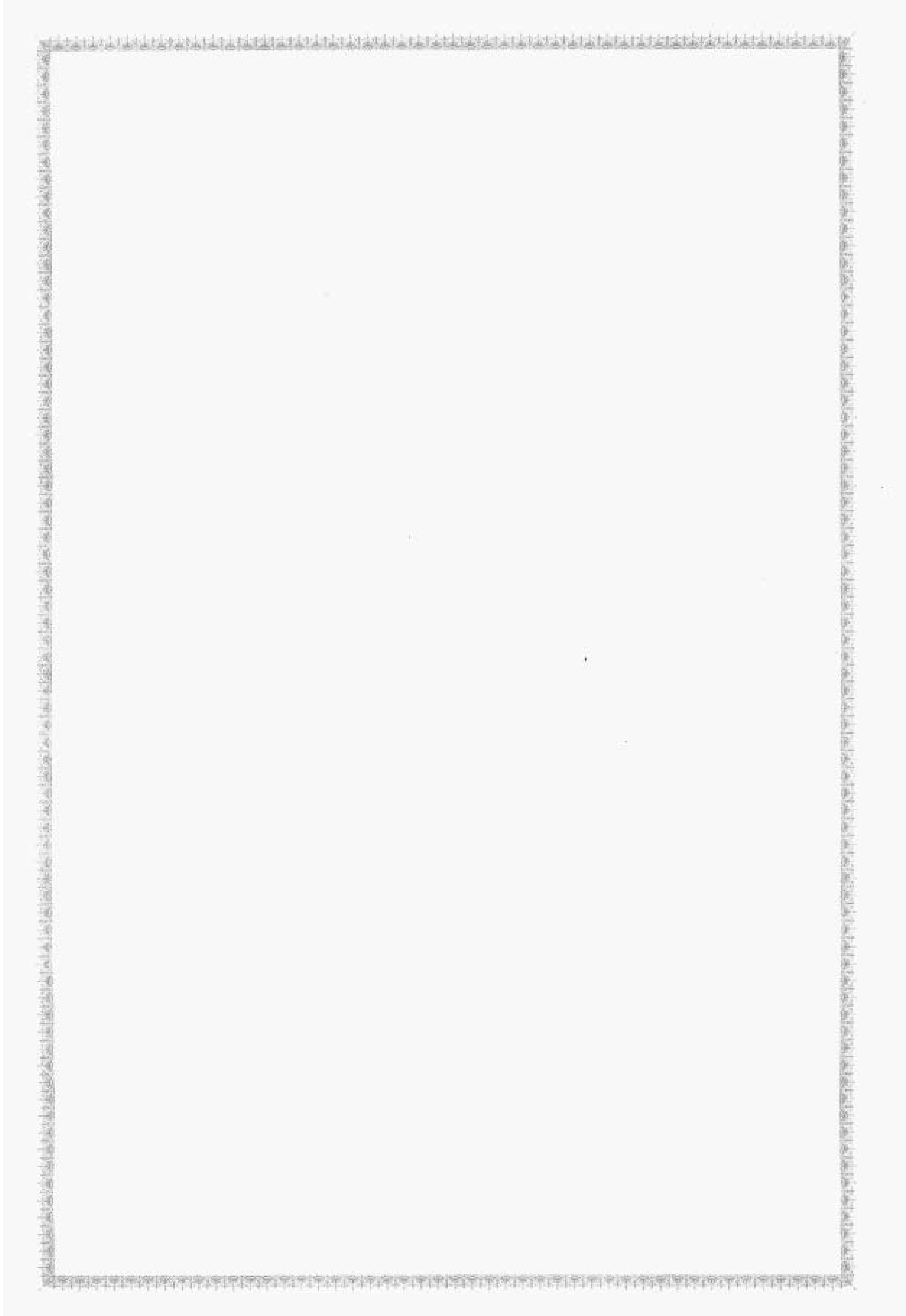
﴿ قُل لو كنتم فـي بُيوتكـم لـبرَز الذيـن كُتـبَ عليـهم القتـلُ إلـى مضاجعهم. وليبتلى الله ما فى صدوركم، وليمحِّص ما فى قلوبكـم. والله عليم بذات الصُّدور ﴾..

ونهض فى قوة وطمأنينة، وراح يشارك صَحبه فى شدِّ الخيـام، فقـد آن للعقيلات والأخوات أن يسترحن، بعد ما أضنـاهُن لُغـوبُ السـفر، ومشقَّةِ الطريق..

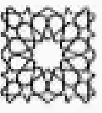
وراح وهو يعمل، يردد فى حبور وتهلُّلٍ آية الله فى كتابه:

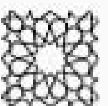
﴿ إنَّ ولِيِّىَ الله الذى نزلَّ الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾..!!



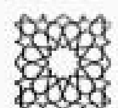


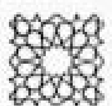
الفصل السادس

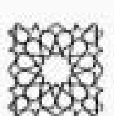


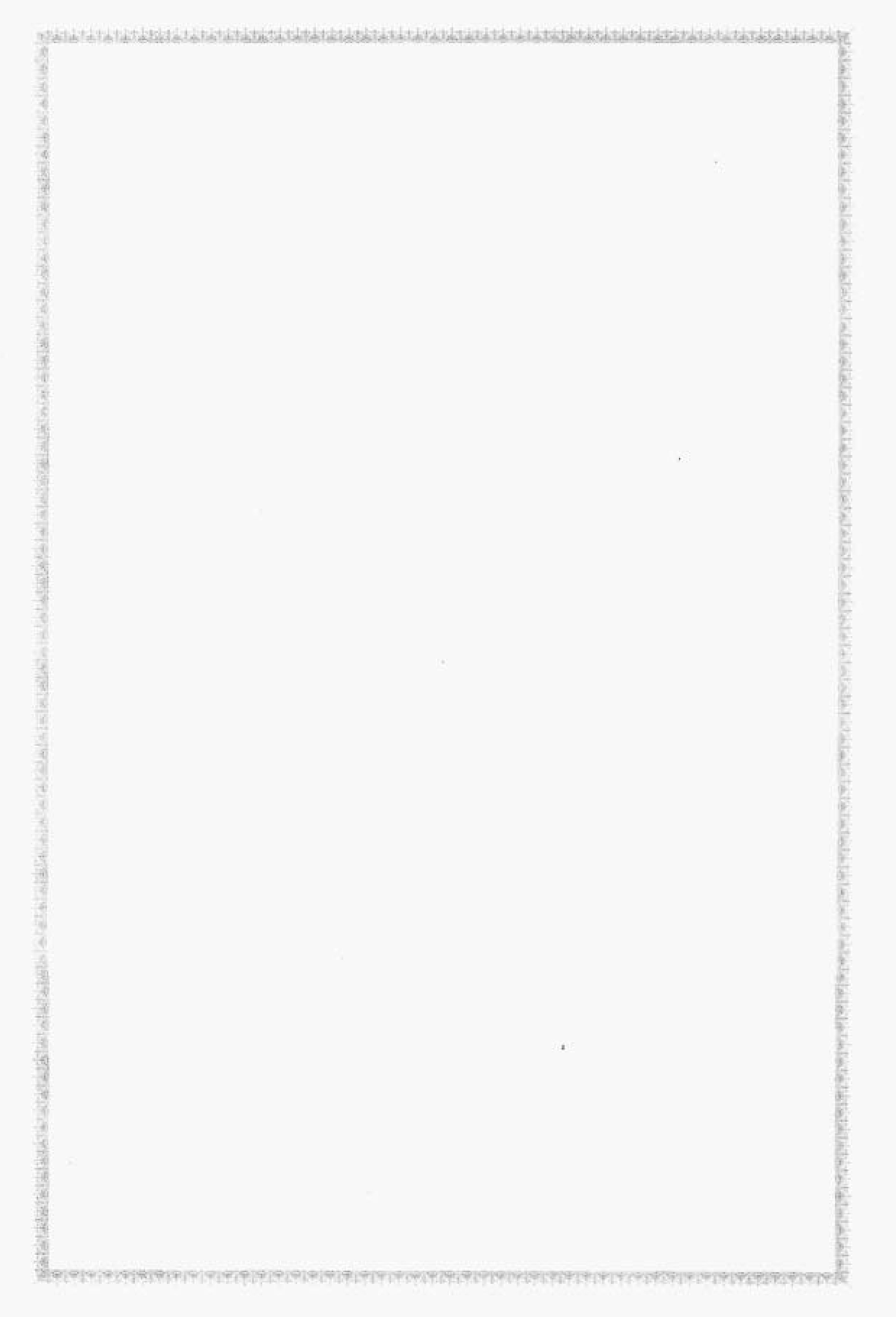


المـــأســـــــاة والعظمـــــــــة









وكان اليوم، غُرّة المحرم..

والعام، الواحد والستين للهجرة..

والمكان، كربلاء.. على مقربة من نهر الفرات..

وقبل أن نبلغ اليوم العاشر من المحرم.. يومَ الواقعة الرهيبة، والمهيبة.. يوم الآلام، والمجد.. يوم الفاجعة، والبطولة.. يوم المأساة، والعظمة..

قبل أن نبلغ هذا اليوم، علينا أن نتابع الأحداث التى سبقته، وكانت جزءًا من صميمه.

إن ابن زياد فى الكوفة يعمل ليل نهار فى إعداد ضربته الآثمة التى تَلْهثُ وراءها روحه المظلمة المسعورة..!!

وها هو ذاك، يختار قواده للمعركة، ويحشد المقاتلين..

وحين يرى الناسَ يهربون من الانضمام لجيشه، يلجأ إلى طريقته فى معالجة العصيان، فيجمع أهل الكوفة أمام قصره، ثم يأتى بأحد المضربين عن الاشتراك فى جيشه فيأمر بضرب عنقه، ثم يلقى برأسه ليتدرج على الأرض أمام الناس الذين يفزعهم المشهد، فيقبلون على طاعته كارهين ومكرهين..!!

وتذكَّر ابن زياد أن لديه جيشًا مجهَّزًا، قِوامه أربعة آلاف فارس، كان قد أعده تحت قيادة - عمر بن سعد - لمجابهة ثورة الدَّيْلم فى أرض هَمذان.

كما كان قد عيَّن - عمر - هذا واليًا على الرىّ.. فدعاه إليه وأمره أن يخرج بجيشه إلى كربلاء.

واعتذر عمر بن سعد، فرارًا من أن تتلوث نفسه ويداه بجريمة لا يطيقها ضمير به مُسْكَةٌ من رشاد..!!

لكن الطاغية هدده بحرمانه من الولاية التى كان يطمح إليها ويعزله عن الجيش كله، فضعفت مقاومة ابن سعد وغاب رُشده، وقَبِل القيام بالمهمة البشعة، وسار بجيشه إلى كربلاء..

وكان مستشار ابن زياد لهذه الحملة الباغية، مسْخُ شائه الخَلْقُ والخُلق، اسمه شِمْر بن ذى الجون.

رجل مدخول الإسلام، انشقَّت عنه الأرض بغتة فى الأيام الأولى لفتنة الخوارج الذين ناصَبوا الإمام عليًا العداء.. فأدلى معهم بدَلْوه، عاملاً لحساب نفسه الخبيثة، أو لحساب قوة خفية شِرِّيرة.

ومن تلك الأيام، وهو يكيد للإسلام، ويُخرِّب فى صفوفه متخفيًا وراء ذلك القِناع المشبوه - قناع انتمائه للخوارج وتسلله بمبادئهم إلى أغراضه المنكرة وأغراض القوى التى يعمل لحسابها..!!

ولقد نفث فى روع ابن زياد أن هذه فرصة عمره، إذا استطاع أن يجهز على "الإمام الحسين" ويقدم رأسه هدية لسيده يزيد..!!

نحن الآن فى اليوم الثانى من المحرم.. وقد وافى كربلاء - عمر بن سعد - فى جيشه المكون من أربعة آلاف فارس، كما ذكرنا

من قبل.

ولقد عسكر هناك على مقربة من معسكر "الإمام الحسين" الـذى لا يزيد على اثنين وسبعين من أهله وأنصاره وابتدأ عمر بـن سعد مهمته باختيار أحد رجاله واسمه قره بن سفيان الحنظلى، آمرًا إياه أن يذهب إلى "الحسين" رضى الله عنه، فيسأله: لماذا جاء؟؟

وأجابه "البطل":

"إن أهل هذا المصر ـ يعنى الكوفة ـ كتبوا إلىّ يذكرون أنهم لا إمام لهم، ويسألوننى القدوم عليهم، فجئت إليهم.. وفى الطريق علمت نكوصهم، فأردت الرجوع، فمنعنى الحر بن يزيد، وسار بى إلى هذا المكان"..

وفرح عمر بن سعد، بهذه الإجابة التى أثلجَتْ صدره إذ رأى فيها بادرة لإمكان الوصول إلى حل سلمي ينجيه من خوض قتال يتمنى ألا يُطوِّق عُنُقه بأوزاره الثقال..!!

فبادر بالكتابة إلى طاغية الكوفة، الذى أجابه على الفور بكتاب يقول فيه: "قد بلغنى كتابك، فاعرض على الحسين البيعة ليزيد، فإذا بايع ومن معه فأخبرنى وسيأتيك رأيى"..!

وعرض ابن سعد كتاب الطاغية على "الإمام الحسين" فكان جوابه: "لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبدا. وإن يكن الموت فمرحبًا به"..!!

ويرسل إلى أميره بردّ "الحسين" فيكتب ابن زياد إليه: "امنع الحسين وأصحابه الماء، وحُل بينهم وبينه حتى لايذقوا منه حَسْوَة، كما فعلوا بالتقى "عثمان بن عفان" رضى الله عنه..!!

يا للفجّار حين يتوقّحون..!!

تُرى هل سأل ابن زياد نفسه: أين كان يوم مُنعَ "عثمان" الماء..؟؟
وأين كان "الحسن والحسين وأبوهما الإمام"..؟!
أما هو، فكان جيفةً تنتقل فى مراتع الإثم..

وأما "الإمام".. ومعذرة إلى الله عن هذه المقابلة التى نلجأ إليها مضطرين..

نقول: أمّا "الإمام" فقد كان يحمل قربة الماء على كاهله، ويخوض بها بين الثوار مقتحمًا صفوفهم، متحديًا حصارهم. يذودهم ويذودونه، ويدفعهم ويدفعونه، حتى سقطت عمامته من فوق رأسه وحتى أنفذ الماء إلى الخليفة الظمآن!!

أما "الحسين وأخوه الحسن" فقد كانا هناك بأمر من أبيهما، يحرسان الخليفة ويذودان عنه عَوادِى الثوار.

ولقد جُرحا، وسال منهما الدم.. ورغم ما بذلاه من طاقة وجهد؛ فإنهما لم ينجُوا بعد استشهاد "عثمان" رضى الله عنه من لوم أبيهما الشديد، بل ولطَمهما بيديه، وهو يصرخ فيهما:

"لماذا لم تموتا دونه"..؟!

والآن، يزعم هذا الغِرُّ الكذوب أنه يثأر لعثمان، ولا يتورع عن اتخاذ ذكراه وسيلة دنيئة يبرد بها وحشية وحرمان أبناء الرسول فى تلك الأرض القائظة من شربة ماء..!!

* * *

وعاد الحوار بين "الإمام الحسين" وعمر بن سعد، فاستمسك "الحسين" بموقفه فى رفض مبايعة يزيد.

يقول "عقبة بن سمعان" وهو أحد اثنين من أصحاب "الحسين"

خلصا من المعركة:

"صحبتُ "الحسين" مـن المدينـة إلـى مكـة، ومـن مكـة إلـى العراق.. وسمعتُ جميع أحاديثه حتى يوم مقتله..

فوالله ما زاد على أن قال لهم: دعونى أرجع إلـى البلـد الـذى أقبلت منه، أو دعونى أذهب فى هـذه الأرض العريضة؛ حتـى ننظر ما يصير إليه أمر الناس.. فلم يفعلوا "!!

هو إذن لم يعرض كما تزعم بعض الروايات الدخيلة أن يذهبوا بـه إلى يزيد فيضع يده فى يده..

هذا تحريف واضــح.. وإلاَّ ففيـم إذن كـان امتناعـه عـن أن يقـول بلسانه: بايعتُ يزيد، فينفَضّ جيش ابن زياد، وينتهى كل شىء..؟!

لقد رفض الذهاب إلى الكوفة للقاء ابن زياد..

ثم رفض طلب ابن زياد، بأن يُبايع يزيد..

وها هو ذا الهول يحيط بـه وهـو صـامد، يرفـض الإذعـان لعصابـة البغى والإثم فى عزَّة المتقين، وإباء الأكرمين..!!

وضاق صدر ابن زياد بصمود البطل، ففزع إلى مستشاره الزنيم شمر بن ذى الجون، فأشار عليه أن يقسو على ـ عمر بن سـعد ـ فـى خطابـه، ويأمره أن يجىء بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة، فإن أبـوا ، قاتلـهم حتى الموت..

ويلمح شمر، الممتلئ بقذارة النفس وخبث الطوية.. يلمح فى ذلـك الحوار الدائر بين "الحسين" وعمر بن سعد بادرة قد تُفضى إلى مهادنـة أو تفاهُم ـ الأمر الذى لايُشبع نَهمَه الخبيث إلى التقويـض والتخريـب اللذين يعمل لهما منذ زعم الإسلام وادَّعاه..!!

هناك هداه تفكيره الخبيث إلى أن ينتقل بنفسه إلى أرض القتال، ليتولى إضرام النار، إذا هى لم تُضرم نفسها وليصل بالمعركة بعد شُبوبها إلى الغرض الذى يريد..!!

وهكذا اقترح على ابن زياد أن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه عمر بن سعد، ويبقى هناك عينًا لابن زياد ورقيبًا، ومقاتلا أيضًا..

واشترك مع أميره الطاغية فى صياغة كتابه إلى ابن سعد، ثم هَرْوَل به إلى كربلاء..

"من عبد الله بن زياد أمير الكوفة والبصرة، إلى عمر بن سعد، فإنى لم أبعثك إلى "الحسين" لتكُفَّ عنه، ولا لتكون له عندى شفيعًا.

ادْعُ "الحسين" إلى ما أمرتك، فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين، فابعث بهم إلىّ. وإن أبوا، فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم.

وبعد أن يُقتل "الحسين" أوطِئ الخيل صدره وظهره.. فإن مضيت لأمرنا، جزيناك جزاء السامع المطيع.. وإن أبيت فاعتزل جندنا.. وخَلِّ بين شمر بن ذى الجون والعسكر والسلام"..!!

لم يكد عمر بن سعد، يتلو خطاب أميره حتى أدرك ما وراءه من كيد ابن ذى الجون، فقال له:

"لقد أفسدتَ علينا أمرًا كنا نرجو صلاحه.. والله لن يستسلم الحسين أبدًا"..

فأجابه شمر: "امْض لأمر أميرك وقاتِل، أو فخَلِّ بينى وبين الجند"..

ومرة أخرى، غُلب ابن سعد على دينه، واستسلم لأطماعه وهواه، فرضي أن يبقى قائداً لحملة رجيمة، وجيش ظلوم!!

وضَحَتِ النوايا إذن، أمام "الحسين"..

إنهم يريدون إذلاله، أو يريدون حياته..

أما المذلَّةُ؛ فالمماتُ دونها!!

وأما حياته، فليسَ هو أول مَن يجود بها في سبيل الحق من آل بيته العظيم، ولن يكون آخر من يجود بالحياة منهم..

الصعب في الأمر، أنهم لا يريدون أن يقاتلوا قتال الشرفاء، بل ولا قتال الآدميين!!

إنهم لا يقنعون بمواجهته في أربعة آلاف فارس. بينما كل الذين معه من أهل وصحب، اثنان وسبعون لا غير..

أجل.. إنهم لا يقنعون بتفوقهم العَدديِّ الساحق، فيحُولون في صغارٍ ولؤم، بينه وبين الماء، وهم يرون مَن وراءه في الخيام من سيدات، وأطفال، ومرضى!!

لقد حاصروا الطريق إلى الشريعة بخمسمائة فارس.. وجَفَّت القِرَب التي كان أخوه "العباس بن علي" قد ملأها من قبلُ عَنوة، وقبل أن يَضْرَى حولها الحصار.

ولقد يصبر "الحسين" ويصبر رجاله على الظمأ إلى حين، ولكن الأطفال والنسوة الذين لم يعد يُطاق مشهدهم وهم يترنحون تحت وطأة الظمأ القاتل!! ماذا يصنع البطل لهم..؟!

تُرى هل أسِفَ على خروجه من مكة إلى حيث هو الآن؟

إن المؤمنين لا يأسفون على خَطر، ولا يَجزعون من قدَر..

ولعلّه قد أسف لشيء واحد، هو أنه لم يستمع لنصح ابن عمه "عبد الله بن عباس" ألاّ يصحب معه الحرائر والأبناء. ومع هذا فلله الأمر من قبل ومِن بعد!!

ولسوف يصبر على واجبه، ويُعانق مصيره بما عُرف عن بيته الكريم من رضًا وثبات وولاء..

هكذا وقف ابن الرسول الأكرم.. وقف ابن "على" البطل، و "فاطمة" الزهراء الموقف اللائق به، والمقدور له..

كان يستطيع أن يُخادعهم، والحربُ خُدعة..

بل كان من حقه لو شاء أن يبايع بلسانه، حتى إذا عاد بأهله إلى مكة واطمأن على سلامتهم، خلى البيعة وألقى بها إلى التراب، وله من دينه فى مثل ذلك رُخصةٌ سجلها القرآن فى بعض آياته فقال:

﴿.. إلاَّ منْ أكرِه وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان﴾.

ولكنه سليل بيت، ليس من طرازه سواه. وابنُ رجال لا يركبون الرّخص، بل يعانقون العزائم!!..

إن عاقبة المعركة لواضحة مقروءة.. فاثنان وسبعون، لن يَهزموا بل يُفلتوا من أربعة آلاف فارس ضربوا حول القِلّة الصامدة أبشع حصار.. إنه لا أمل فى النصر.

ولكن، أىّ نصر هذا الذى لا أمل فيه..؟ النصر العسكرى فى معركة غير متكافئة..؟؟

ليكن ذلك، فأين النصر الآخر، الأعظمُ، والأكرمُ، والأبقى..؟

النصر الذى يتحقق ويتمثل فى بذل الحياة من أجل الواجب.. وفى إعطاء القدوة بروعة الثبات.. وفى إضاءة ضمير الحياة

بجلال التضحية..؟!!

هذا النصر، هل فقد "الحسين" الأمل فيه؟؟ لا.. بل لقد تجسَّدت فيه كل آماله وأمال الذين معه، ومن ثم تشبَّثَ وتشبَّثوا به فى وله عظيم، وراح يقاتل ويقاتلون فى سبيله على نحوٍ يجلّ عن النظير..!!

وإننا لنظلم يوم كربلاء ظلمًا كبيرًا، حين نظنه مأساة لا غير.. وفاجعة لا أكثر.. ونتخذه مناسبة لاجترار الأحزان والآلام..

لا.. ثم لا، يا رجال!!

إنه مأساة وفاجعة إذا نظرنا إلى الشكل الخارجى للمعركة، فرأينا السَّفلة الأدعياء ينتصرون.. ورأينا الوحشية المجرمة تفتك بأبناء الرسول ﷺ.

لكنَّ يوم كربلاء ليس مأساة وفاجعة، إذا نفذنا ببصائرنا إلى جوهره النضير، فرأينا عظمة الثبات، وروعة البطولة، وعزة الإيمان، وجلال التضحية، فى مهرجان للحق، هيهات أن يكون له نظير..!!

وستكون لنا إن شاء الله وقفة مع هذا المعنى الجليل الخالد فى الفصل القادم من الكتاب.

أما الآن، فإن علينا أن نسارع إلى مكان المعركة الأليمة والعظيمة؛ فإن ساعاتها الحاسمة تقترب..!!

نحن الآن مع اليوم التاسع من المحرم، وقد ولَّى نهاره ودَلِف ليل جديد!!

ولقد أخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب..

ورأى الحسين تحرّكاتهم، وتذكَّر واجبًا لابد من أدائه قبل أن يبدأ القتال.

هنالك أرسل إلى قائدهم عمر بن سعد ـ طالبا إرجاء القتال إلى غد.. وأجابه ابن سعد إلى ما طلب.. ولعلَّه ظن أن وراء هذه الرغبة فى الإرجاء عزمًا على طلب التسليم وعلى بيعة يزيد!!

ترى، لماذا طلب "البطل" إرجاء القتال..؟؟

هل لِيُدبر خواطره من جديد حول موقفه؟

هل اقترب اليأس من عزمه، فأراد أن يفكر مع نفسه فى البحث عن مخرج يُوَقِّيه وأصحابه ما ينتظرهم من هول..؟

كلا.. لم يكن لشىءٍ كهذا أى وجود فى رُوع البطل، ولا فى تفكيره.

فهو قد وطَّن نفسه على الموت من أولى ساعات المؤامرة التى بدأت مع طلائع جيش ابن زياد..

وهو لا يعرف خِيارًا، بين أمرين، ثانيهما خذلان الحق وبيعة يزيد!!

إن أمامه طريقًا واحدًا، ليس لمثله أن يسلك فى هذه القضية سواه ذلكم هو سبيل التضحية بالحياة، ولو أمكن؛ فبألف حياة..!!

إنما طلب إرجاء القتال إلى الغد؛ لأنه عظيم جدّ عظيم.. ليس لعظمة نفسه منتهى، وليس لنُبْل روحِه حدود!!

انظروا..

عندما استبانت له نتيجة المعركة. أراد أن يدفع حياته وحدها زُلْفى لها وقُربانًا..!!

لم يشأ أن يدفع لسيوف البغى حياة أنصاره الخمسين، ومعهم الأشبال والرجال من أهله وأبنائه، بعد أن تغير الموقف بالنسبة لهم..

لقد خرجوا معه على حساب أن الكوفة فى انتظارهم، ليبدأوا منها وبها مقاومة مشروعة، يدْحَضون بها ضلال حاكم الشام، ويدرأون بها عن الإسلام خُبْثَ بنى أمية..

لكنهم فوجئوا بالكوفة تنتظرهم بوجه آخر كالحٍ وعَبوس..

فرُسلُ "الحسين" صُرِعوا واستشهدوا..

والألوف التى أعطت بيعتها لمسلم بن عقيل، تبدّدتْ واختفت كالجرذان..!!

وبدلاً من أن يجد البطل فى استقباله كتائب الحق من شيعته وأنصاره، وجد عصابات البغى تنتظره بالغدر والمنايا..!!

إذن، الموقف قد تغير بالنسبة للذين معه من أهل وأنصار..

وإن لم يكن قد تغير بالنسبة له، ولما وطّن عليه إرادته، وعزمه وضميره.

وهكذا طلب إرجاء القتال، ليجعل أهله وأصحابه فى حِلٍّ من كل التزاماتهم تِجَاهه..!!

وهكذا جمعهم فى الليل، وقال لهم بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه:

ـ ".. أما بعد، فإنى لا أعرف أصحابًا خيرًا من أصحابى.. ولا أهل بيت أبرَّ، وأوصل من أهل بيتى.. فجزاكم الله خيرًا ؛ فقد برِرْتُم وأعَنْتُم..

وإنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيرى.. وإن يومى معهم غد..!!

وإنى قد أذنت لكم جميعًا ، فانطلقوا فى غير حرج. ليس عليكم منى ذِمام..

هذا هو الليل قد غشِيَكم، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار، وانْجوا بأنفسكم"..

من لمثل هذا الموقف المعجز، مثلُ ابن "على" وحفيد "محمد" ﷺ ؟؟!

من، يا رجال..!!؟؟

وهو لم يقلها لأهله وصحبه استدرارًا لعطفهم؛ فماذا يُغنى عطفهم فى هذا المقام؟؟

إنما كان يعنى تمامًا كل كلمة قالها.. كان يعنى تمامًا ألاَّ يُحمِّلهم مسئولية الموقف الذى اختاره، والهولَ الذى قرر أن يُواجهه فى استبسال.!!

تُرى، هل يتقبل الأهل والأنصار رأيه هذا، وتوجيهه؟ كلاَّ.. ولماذا..؟؟

لأن العظمة، ولأن البطولة كانتا فى ذلك اليوم على موعدٍ مع هؤلاء الأبرار جميعًا فتيانًا وكهولا، لتحققا بهم أروع مشاهدهما، وأسمى أمجادهما..!!

من أجل ذلك، لم يكد البطل يفرغ من كلماته، حتى تحولوا جميعًا إلى أسود تزأر بالكلمات، وتشرَقُ بالدموع!!

صاح أخوه لأبيه "العباس بن على":

"معاذ الله والشهر الحرام.. وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟؟

نقول: تركنا سيدنا وابنَ سيدنا غرضًا للنبال ودريئةً للرماح، وحرزًا للسباع.. وفررنا عنه رغبة فى الحياة؟؟!!

معاذَ الله.. معاذ الله.. بل نحيا بحياتك.. ونموت معك"..!!

وصاح بمثل ذلك "بنو عقيل" و "بنو جعفر" وتقدم ابنه "على بن الحسين" - فتى لم يتجاوز سِنُّه التاسعة عشر..!!

وسأل أباه:

"ألسنا على الحق يا أباه؟؟"

قال الحسين:

"بلى، والذى أنفسنا بيده.."

فصاح فَتاه العظيم:

"إذن، والله لا نُبالى"..!!

ومن أصحابه وأنصاره، قام "زهير بن القَيْنْ" يَزأرُ وينادى:

"والله، لوددتُ أن أقتلَ ثم أبْعَث.. ثم أقتلَ ثم أبْعث..

هكذا ألف مرة، أكـون فيـها رِدْءًا عـن حيـاتك وحيـاة هـؤلاء الفتيان من آل بيتك"..!!

وتلاه "مسلم بن عَوْسَجة الأسدى" :

"أنحنُ نتخلَّى عنك، ولم نعْذِر إلى الله فى أداءِ حقك؟؟

أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رُمحـى وأضربـهم بسيفى ما ثبت قائمُه بيدى..!!

ولو لم يكن لى سلاح، لقذفتُهم بالحجارة دونـك حتـى أمـوت معك"!!

وقام آخر.. وآخر.. وآخر..

هَبُّوا جميعًا يُعطون أمجد بيعة فى تاريخ التضحيــة والفـداء. بيعـة على موت مُحقق.. فليس هناك لما دون الموت أدنى احتمال!

ألم أقل لكم: إن العظمة والبطولة أرادتا أن تجعلا من ذلـك اليـوم مهرجانًا وعيدًا..؟؟!!

لقد ارتفع الأبطال جميعًا إلى مستوى الموقف المجيد، الذى سيجعلون منه درسًا لأجيال الدنيا كلها فى الولاء الباهر للحق، وفى التضحية الشاهقة من أجله.. وهاهم أولاءِ، يعودون لمضاربهم وخيامهم.. يتهيأون للقاء الغد بالصلاة والابتهال وبِشحْذِ سيوفهم، وبَرْى سهامهم، وصَقْل رِماحهم!!..

ومِن طريف ما حدث فى ليلتهم تلك، أن "نافع بن هلال البُجَلى" رضى الله عنه وعنهم أجمعين، قضى شَطْر ليله فى كتابه اسمه على سِهام نَبْله، إمعانًا فى طلب المثوبة والأجر.. وإمعانًا فى السخرية من الخطر وإمعانًا فى الترحيب بالموت..!

وطلع الصباح.. وأقبل اليوم المشهود.. العاشر من المحرم!!

بدأ البطل يومه المجيد بصلاة الفجر.. أمَّ فيها أهله وصحبه.

وطلعت الشمس على سبعين، أو اثنين وسبعين بطلا فى جانب.. وأربعة آلاف ذئب فى الجانب الآخر..

ووقف "الحسين" يعبِّئ رجاله.. فجعل "زهير بن القين" على الميمَنة.. و"حبيب بن مظهر" على الميسرة.. وأعطى الراية أخاه "العباس بن على".. وتقدم شباب آل البيت، ليأخذوا مكانهم فى الصف الأول فدفعهم عنه الأنصار قائلين:

"معاذ الله أن تموتوا ونحن أحياء، نشهد مصارعكم. بل نحن أولا، ثم تجيئون على الأثر"..!!

وهكذا وقفوا فى الصف الثانى وراء القائد والأنصار. وفى الجانب الآخر وقف ـ عمر بن سعد ـ يُعبِّئ جيشه، وينظم ميمنته وميسرته.

ياويْحهم.. ألا يَخجلون؟؟!! أربعة آلاف، لاثنين وسبعين.؟؟!!

وفى سبيل ماذا ..؟؟

فى سبيل باطل يرونه رأى العين، وفى سبيل أكذوبة صغيرة اسـمها ـ يزيد ـ وجريمة منكرة، اسمها ـ ابن زياد .؟!

ومِن عجبٍ أنهم كما يحدثنا التاريخ، خرجوا لجريمتهم تلك بعـد أن صلّى بهم قائدهم صلاة الصبح..!! أصحيح أنهم صلـوا، وقـرأوا فـى آخر صلاتهم:

"اللهم صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد..؟!"

إذن ما بالهم يَنفتِلون من صلاتهم ليحصـدوا بسـيوفهم الآثمة آل محمد..؟! لكمْ كان "نافع بن هلال البُجَلىّ" صادقًا وهو يقـول لابـن ذى الجون الشقى:

"والله لو كنتَ من المسلمين؛ لعظُمَ عليك أن تلقى الله بدمائنا..

فالحمد لله الذى جعل منايانا على أيدى شِرار خلقه"..!!

أجل، الحمد لله.. فتلك مزية ادَّخرها القـدر للحسـين وأصحابـه ـ أن يجىء مصرعهم المقدر على أيدى شرار لا يُقيـم الله لـهم وزنًـا فـى الدنيا ولا فى الآخرة..

فلكمْ يشُق على الأنفس المؤمنة أن تجىء مناياها علـى أيـدى قـومٍ خِيار!!

أتذكرون كلمات أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضـى الله عنـه عندما أفاق من غشية الطعناتِ الغادرة التى وجهها إليه وهو يصلى، أبو لؤلؤة المجوسى..؟

لقد تهلل وجه "عمر" حين عرف هويَّة قاتله.. وحَمِد الله كثيرًا، إذ لم تجئه الضربة من بَرٍّ تقيَ.. وجاءت من ذلك المجوسيِّ الزنيم..!!

ومن الحظوظ الوافية للحسين وأصحابه، أن خُصومهم فى تلك المعركة كانوا أشرارًا.. أشرارًا من الرأس إلى القاع.. ولم يكن فيهم خَيِّر واحد، ولا بَرٌّ واحد يمكن أن يُشكل وجوده بينهم أمارة احتجاج أو علامة استفهام..؟!!

* * *

أوشَك القتال أن يبدأ..

ولكن قبل أن تنقذف أول سهامه، وقع حادث عجيب..

أتذكرون "الحُر بن يزيد التميمى" قائد الطليعة التى أرسلها ابن زياد من الكوفة.. والذى التقى بركبْ "الحسين" واضطره للنزول فى كربلاء..؟؟

إنه لم يكد يرى القتال على وَشْك البَدء، حتى أحس فداحة الجريمة التى ستُلوِّثه، وبشاعة الوزر الذى سيحمله، وظلام المصير الذى سيكون له عند الله، فخرج بجواده من صفوف فرسانه، واقترب من قائد الجيش ـ عمر بن سعد ـ وصاح به:

ـ أمُقاتلٌ أنت ذلك الرجل..؟

قال ابن سعد:

ـ نعم والله، قتالاً أيسرُهُ أن تبتر الأيدى، وتطوِّح الرؤوس!!

قال الحُرّ:

ـ أوَلستُم تاركيه يرجع إلى حيث أتى، أو يضرب كما قال فى

الأرض العريضة..؟

قال ابن سعد:

ـ لو كان الأمر بيدى لفعلت.. ولكن ابن زياد يأبى ذلك..

فصاح "الحُرّ" وهو يدفع جواده نحو صفوف الحسين (إذنْ، فقاتِلنْى معه)..!!

ونزل من فوق جواده، يعانق "الحسين" ودموعه تتفجَّر من مآقيه، ويقول له: ـ

"قد كان مِنى بالأمس ما كان. وقد استبانَ لى حقك، فجئتك أفتديك بنفسى.

أفترى فى ذلك توبةً لى مما صنعت"..؟

وأجابه البطل، وهو يضمُّه إلى صدره النبيل:

"إنها خير توبة، فأبْشِر.. فأنت الحرّ فى الدنيا.. وأنت الحرّ فى الآخرة إن شاء الله"..!!

وكما صنع "الحرّ بن يزيد" صنع بطل آخر، هو "يزيد الكندى".. لقد غادر مكانه فى جيش ابن زياد، وبصَق عليه، ثم انطلق يَعْدو بجواده إلى جبهة "الحسين" العظيم..!!

* * *

والآن..

أتبصرون ذلك السهم الذى انطلق يُمزّق الهواء فى اتجاه "الحسين" وأصحابه؟؟

إنه السهم الذى قذفه ـ عمر بن سعد ـ قائد جيش ابن زياد معلنًا بدء القتال..

وتلاه على الأثر، بُروز صف من رجال ابن سعد يطلبون المبارزة. ومن صفوف الأبطال خرج إليهم أكفاؤهم الأشِدَّاء..

هذا "عبد الله بن عمر الكلبى".. مؤمن من الكوفة لم يكد يعلم باحتجاز "الحسين" عند كربلاء، حتى اصطحب زوجته معه وشدَّ إليه الرِّحال.

ها هو ذا يوفِّى لله بيعَه ..

وها هو ذا، يخرج إلى مبارزِه، فيصرعه من فوره .

وكان استهلالاً باهرًا، أطار صواب الآخرين، فهجم عليه الشياطين المرَقَة حيث ضربه أحدهم بسيفه فطارت كفه فى الهواء. لكنه انثنى على ضاربه فصرعه فى لحظة ..

وتكالب عليه آخرون، تنكَّروا حتى لِشَرف المبارزة وقواعدها، لاسيما حين رأوا أن جميع مُبارزيهم صُرِعوا بأيدى الذين خرجوا إليهم من أنصار "الحسين" ..

ولم يتركوا الرجل إلا عندما أبصروا فريقًا من أصحابه يقتربون منهم بسيوفهم المشرَعة.. عندئذ ولوا عنه، وهو مُثْخن بجراحه.

واشرأبَّت زوجته من بعيد، فبصُرت به، وانطلقت تُهرول إليه حاملةً بيُمناها حربة طويلة. حتى إذا بلغته راحت تحتضنه بين ذراعيها لينهض قائمًا وهى تقول له:

"فداك أبى وأمى..

قاتِلْ دون الطيِّبين من ذُرية محمد ﷺ"!!

لكنه يصيح بها، ويضرع إليها كى تعود إلى خبائها، فإذا هى تُلَعلِع بصوتها الواثق:

"لا، لن أعود.. ولن أدعَك تذهب إلى الفردوس وحدك"..!!

ولكنه يزحف بجسده المُثْخن، ويدفعها أمامه نحو الخيام فتستعصى عليه، وتستميت دون الرجوع.

ويلمح "الحسين" المشهد من بعيد فيناديها:

"جُزيتُم عن أهل بيتى خيراً"..

ارجعى يرحمك الله، فليس عليكُنَّ قتال".

وآنئذ لا غير، تمتثل وتطيع، فإنها لا تستطيع لأمر ابن الرسول عصيانًا!!

ويستأنف "عبد الله بن عمر الكلبى" زحفه فوق أرض جاشَتْ بالصراع، ضاربًا بسيفه ذات اليمين وذات اليسار، حتى غاضَتْ حياته تحت وطأة الهول الذى كان جسده قد تلقاه..!!

ومرة أخرى، تندفع إلى أرض القتال زوجته التى صمَّمت على ألا يذهب قبلها، وألا يذهب دونها إلى الجنة. وراحت تبحث بين جثث الشهداء حتى وجدته، فجلست بجواره تُسَجِّيه بحنانها، وتضمُّه بكيانها، وتقبِّل الجراح التى رصَّعت جسده وهى تصيح: "هنيئًا لكَ الجنَّة"..!!

ثم ربضت إلى جواره، ويدها على مقبض سيفه، لتحرس جثمانه من الوحوش الذين كانوا يعودون إلى الشهداء، ليجتزوا رءوسهم!!

لكن الشقى الزنيم ـ شمر بن ذى الجوْن ـ أبصرها، فأمر واحداً من شياطينه، غافلها من الخلف وهشَّم رأسها، وهكذا لم تحرم من صحبة زوجها إلى الفردوس الأعلى..!!

* * *

التحمت الجبهتان التحامًا رهيبًا.. ورأى جنود زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغم كثرتهم الهائلة، فجُنَّ جنونهم، وهجَم فُرسانهم فى ضراوة..

وبَرز لهم فرسان "الحسين" الذين لم يكونوا أكثر من اثنين وثلاثين فارسًا، فدمَّروا هجومهم تدميرًا، وجاوزوا الدفاع إلى الهجوم فى سرعة ماحقة، وأحاطوا بفرسان ابن زياد، ثم مَرقوا داخل صفوفهم يُطوِّحون برءوسهم كالذباب!!

وسُقط فى يد قائدهم "عروة بن قيس" فنادى "عمر بن سعد" من فوق صهوة جواده، كى يُدركه بالرماة!! وأمر "ابن سعد" جيشه فتقدم بأجمعه، يتقدمه خمسمائة من الرّماة..

وكَبَّر "الحسين" تكبيرة هزَّت الأرض ونادت زلزالها. وانقذَف يضرب بسيفه، فكأنه قدر، لا رادَّ لأمره.. ولا مهرب من حُكمِه!!

كان يَشدّ كالليث على غريمٍ فيصرعه.. ثم يبصر آخر فى طريقه بسيفه الغادر إلى بعض أصحابه؛ فينْثَنى إليه كالصقر ويُرْديه!!

وحلَّ روحهُ الغلاَّب فى أفئدة أصحابه، فاشتعل حماسُهم، واتَّقدَ مَضاؤهم وامتلأت أفئدتهم المؤمنة عزمًا وشوقًا، وراحوا يضربون ويقاتلون، فى استبسال عظيم.

كانوا كلما قلَّ عددُهم بوقوع الشهداء منهم، ازدادوا إقدامًا وقوة.. لكأنما كانت أرواح شهدائهم تستأنف بعد انطلاقها من أجسادها، نضالها وقِتالها..!!

لم يكن أصحاب "الحسين" يتعجَّلون النصر؛ فما أبعد النصر عن قوم يقاتلون فى مثل ظروفهم وبمثل عددهم.

إنما كانوا يتعجّلون الجنة؛ إذْ لم يكن لديهم ريب فى أنها المُنتهى والمصير..!!

وركز رُماة الأعداء ضرباتهم على الجياد التى يمتطيها فرسان "الحسين" فعقروها جميعًا..

وهبط الفرسان إلى الأرض ليقاتلوا مع إخوانهم.

كان كل بطل من أصحاب "الحسين" يتكاثرُ عليه عشرات من جيش ابن زياد.

وهذه وحدها، تُرينا كيف كانت ضراوة القتال وعَظمة الاستشهاد!!

ورغم ما كان لجيش الباطل من تفوق، فقد كان الفزع من نصيبه وحده.

وليس هناك ما يصور هذه الحقيقة مثل إقدامهم على حَرق المضارب والخيام التى كانت لأهل الحسين وأنصاره.

لقد أحرقوها؛ ليشغلوا بإطفاء نارها المندلعة تلك القِلّة الصامدة لقتالهم والمطوِّحة برءوسهم.!!

واشتعلت الحرائق عالية، فنادى "الحسين" فى ثبات عجيب:

"لا بأس.. اجعلوا الحريق وراء ظهوركم؛ فلا يستطيعوا اجتياز النار إليكم"!!

ونجا فُسطاط "الحسين" من الحريق..

وفى خضمِّ هذا الهول الذى شكله القتال الضارى الوبيل، وقف "البطل" يُقلّب وجهه فى السماء!!

لقد كان ينتظر مَقْدم عزيز لم يُخلِف قط موعده معه ـ ذلكم هو الصلاة..!!

أجَل.. لقد انتصف النهار، وجاء ميقات الظهر، وموعد صلاته.

وللصلاةُ فى ميدان القتال طريقة خاصَّة.. وهكذا نادى "الحسين" لصلاة الظهر- صلاة حرب وقتال!

هل رأى الناس شيئًا كهذا، فى جلاله، وجماله، وعظَمته..؟

حتى الموت ينوشُه ويَنوش أصحابه من كل جانب، لا يغفل عن واجب ربه، ولا عن فرائض دينه!!

ويَفرغون من صلاتهم ليواصلوا جهادهم، وقد بدأ النصف الثانى من النهار..

أىّ إعجاز كان هذا الذى حدث..؟؟

وكيف صمد اثنان وسبعون طيلة هذا الوقت لأربعة آلاف فارس، ورامٍ.. وكيف ستظلّ بقيَّتهم صامدة حتى آخر النهار..؟؟

أوَكل هذا الثبات، يهَبُه الحق أتباعه وأشياعَه..؟!

أجل، وأكثر من هذا يمنح الحقّ ويُعطى..

* * *

لقد أحاط الباقون من أصحاب "الحسين" به يقاتلون من حوله ويذودون عنه.. وكل أمانيّهم أن تواتيهم مناياهم وهم بين يديه، أو عند قدميه..!!

فهذا "حنْظَلة بن سعد الشامى" ينادى أعداء الحقّ:

"إنى أخاف عليكم يوم التَّناد.. فإياكم وقتل "الحسين" فقد خابَ مَن افترى" ..

ثم يثبت بين يديه كأنه جبَل، لا تزُحزحه عن مكانه عشرات السيوف والرماح التى اتخذته هدفًا.. ويظل يقاتل حتى يقع شهيداً..!!

وهذا "سيف الله بن الحارس وأخوه مالك" يقتربان من البطل، ويعانقانه، ثم يقولان له:

"موعدنا الجنة"

ويقاتلان معه ومن حوله حتى تدركهما الشهادة!!

وهذا "عبد الله بن عروة وأخوة عبد الرحمن" يخوضان فى صفوف الأعداء ويُصْليانهم سعيرًا..

ويُثقَل جسدهُما بالطعن وبالضرب والجراح، فيقعان على الأرض خائرة قواهما.. ثم لا تكاد أعينهم تقع على البطل يقاتل وحده عشرات من الأعداء القُساة حتى تنتفض فيهما من جديد عافية الأسود، ويتضرَّم بأسهما.. وينهضان من بين يديه فى قتال مرير حتى يقع أجرُهُما على الله شهيدين عظيمين!!

وهذا "شوذب" و "عباس بن أبى شبيب" و"نافع بن هلال البجلى" و "سويد بن أبى المطاع" وعشرات من إخوانهم المباركين راحوا يقاتلون فى جسارة وغبطة.. كلما سقط أحدهم جريحًا نهض فوق جراحه، وسبح فوق دمائه حتى يعود فيقاتل.. ويقاتل فى عزم شامخ وثبات مَكين؛ حتى لحقوا جميعًا بإخوانهم الذين سبقوهم أول النهار - "زهير بن القين" و"عبد الله بن عمر الكليبى" و "الحرّ بن يزيد" و "ويزيد الكندى".. أولئك الأبطال الذين قاتل الواحدُ منهم وكأنه جيش وحده.. والذين أبْلَوا فى المعركة بلاءً يتعاظمُ كل وصف وكل إطراء..!!

* * *

وتقدم آلُ بيت الحسين..

تقدم أبناء الرسول ﷺ نحو مصايرهم العظيمة..

لم يَعُد الذى يُضْنيهم الظمأ إلى الماء الذى حرمهم منه المجرمون.

بل الظمأ إلى الشهادة.. والشوق إلى الجنة!! لقد كانوا فى لحظاتهم المجيدة تلك، يشَمُّون عبير جدهِّم الرسول ﷺ .. وجدتهم خديجة.. وعبير حمزة.. وجعفر.. وعلى.. وفاطمة.. فيدركون أنهم صاروا فى الجنة على قُربِ ذراع، فينطلقون نحوها فى هُيام..!!

وكان أولهم انطلاقًا "على بن الحسين" ..

فتىً لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره!!

انظروا !!

ها هو ذا ـ فى نضْرة شبابه.. ورَيْعان إهابِه.. فى روعة بأسِه وشرَفِ نفسه.. يتوسَّط حراب الأعداء وسيوفهم، وهو ينشد:

أنا علّى بنُ الحسين بن علىّ

نحن وربِّ البيت، أوْلى بالنبى

تالله، لا يَحكُم فينا ابنُ الدَّعىّ

تمامًا، كما كان يصنع من قبل جَدّه "الإمام على" حين كان يقتحم المعارك فى عُنفوانه اللَّجِب، وهو يزأر:

"أنا الذى سمَّتنى أمى حَيْدَرَه

كلَيْثِ غابات، كريه المنظَرَة

أوفيهُموا بالصَّاع كيل السَّندرة"

ها هو ذا، ابن التاسعة عشرة، يعيد إلى الحياة مرة أخرى بطولات

جده العظيم.

ذريَّة بعضُها من بعض!!

ويمضى، يَضرب ويُضــرب.. حتـى تصيبـه طعنـة رمـح؛ فيقـع علـى الأرض، وقبل أن يتحامل على جراحه لينهض من جديد كانت عشـرات السيوف الباغية قد مزقت جسده الغَضّ الشريف!!

ويراه الحسين.. مجـَّـد الله الحسـين ـ فيُسـرع نحـوه.. ويسـرع معـه شباب بنى هاشم.!!

وفى رباطة جأش تُذهل كل حىٍّ، حمــل البطـلُ ابنـه الحبيـب، ثـم سجَّاه على ذراعى واحـد مـن بنـى عمومتـه، وأمـره أن يذهـب بـه إلـى فسطاطه.

ولا تكـاد الطـاهرة البَتـول "زينـب بنـت علـى" رضـــى الله عنـــها وأرضاها.. لا تكاد تبصر جثمان ابن أخيها حتى تعلُوَ زفراتُ أساها..

أهذا الذى كان من دقائق معدودة، يملأ الأعيُـنَ، شـبابهُ، وبـهاؤه، وسَناؤه..؟؟

هنالك انكبَّت على الأشْلاءِ الطاهرة النـاضرة، تُضمِّخـها بدموعـها وشَجنها..

وأثَّر فى البطل مشهد أخته، فسار إليها يســألها الصبر.. ويقودهـا فى رفق إلى خبائها.

وعاد هو إلى ساحة القتال..

لم يكد هناك على أرض المعركة سوى أهل بيته..

أما أصحابه وأنصاره، فقد رحلوا جميعًا شهداء ممجَّدين..!

ولقد استفتح آل البيت بفتاهم العظيم "على بن الحسين"..

ومن بعده تقدموا جميعًا كالصقور الكواسِر..

ها هم أولاء إخوته لأبيه:

عبيد الله بن علي بن أبي طالب.. وجعفر.. وعثمان.. ومحمد الأصغر.. وأبو بكر.. والعباس.. يقذفون بأنفسهم وسط الهول، وأخوهم العباس يهتف فيهم قائلا:

"تقدموا؛ حتى أراكم قد نصَحْتُم لله ولرسوله".

فيتقدمون إلى قلب الجيش المسعور بسيوفه العاوية، ورماحه الباغية.

وكلما لمحوا خطرًا يقترب من أخيهم البطل "الحسين" تلقوه بأجسادهم حتى سقطوا جميعًا صرعى.. بل قولوا صعدوا جميعًا شهداء..!!

وعلى ثراها تمددت أجسادهم الكريمة يسبقها جثمان "العباس بن علي" الذى كان لبهاء طلعته، وتألُق شخصيته، يُلقَّب بـــ "قَمر قريش"!!

* * *

وتقدم أبناء "الحسين" وأبناء "الحسن":

أبو البكر بن الحسين.. وعبد الله بن الحسين.. والقاسم بن الحسن..

كما تقدم أبناء جعفر بن علي بن أبي طالب: عَوْن .. ومحمد.. وعبد الله.

وأبناء "عقيل بن أبي طالب":

عبد الله الأكبر.. وعبد الله الأصغر.. وجعفر..

وأبناء "مسلم بن عقيل" الـذى قتله ابـن زياد بالكوفـة: محمـد.. وعبد الله..

كما تقدم محمد بن أبى سعيد بن عقيل..

تقدموا جميعًا فى بطولة تتحدَّى نفسها!!

واندفع أصغرهم سنًا ـ القاسم بن الحسن ـ يـهز سيفه فـى الـهواء الساخن، ثم يهوى به فوق الأعناق الضالَّة الظالمة، حتى نالتـه سـيوفهم فهوى كالنجم، ينادي: يا عمَّاه..!!

ونَسِيَ "الحسين" ما حـوله من هـول، وانطـلق كالصَّـقر صـوْبَ قاتِل ابن أخيـه، حيث شَدَّ الليث وضربه بسيفـه، فبتَّر يـدَه الشقيَّـة ثم طرحـه أرضًـا، حيـث داسَتْه خيـل جيـش ابـن زيـاد، فـهلك تحت حوافرها..

وانثنى "البطل" نحو ابن أخيه يَضُمُّه، ويشَمُّه، ويتملَّـى فـى جسـده المُثْخَن، رَوْنَق الزهور..!!

ولأول مرة سالت عبرات الأسد، وقال يخاطب الجثمـان المسَجَّى بالمجد.

"عزيزٌ والله على عمِّك أن تدعوه فلا يُجيبُك.. أو يُجيبك فلا ينفعك فى يومٍ، كَثُرَ واتِرُه.. وقَلَّ ناصِرُه.."!!

ثم حمله بين ذراعيه، إلى حيث أرقده بجـوار ابنـه علـى، ثـم عـاد لِهوْل المعركة من جديد.!!

لك الله، أبا عبد الله!!

وهل اختارَتْك المقادير لهذا العبء الذى يُدغدغ الجبال، إلا وأنت له كُفءُ وبه جدير؟؟

ألا صبراً آل محمد.. فهذا دَوركم فى الحياة، وحظكم من الدنيا يا سادة الآخرة، ويا مُلوك الجنَّة..!!

راح الأبرار يسقطون فى الحومة أبطالا.. و"الحسين" يصول هنا.. ويُقاتل هناك.. ودمُه الزكىّ يتفجر من فمه الذى اخْتَرمه سهم وهو يحاول أن يأخذ جرعة ماء..!!

ووقف وحيداً أمام أعدائه..

وحيداً.. فقد رحَل الأهل جميعًا، بعد رحيل الأصحاب..

كلهم عانقوا الشَّهادة فى سبيل الحق.

وأحاط به القتلة الذين سُمِّروا فى أماكنهم، زائغةً أبصارهم.. واجِفةً قلوبهم.

لقد كانوا ـ على كثرة ما اقترفوا من جريمة وسفكوا من دم ـ يهولُهم دَمُ "الحسين" فيتفادى كل منهم وزْرَ الإجهاز على حياته.

وهُنا انبعث أشْقاها "شمر بن ذى الجون" فصرخ فيهم؛ ليختطفوا رأس البطل.. فاقتربوا منه.. لكنه رغم جراحه ووحدته ينقَضّ عليهم بسيفه.. ويخرج من الفسطاط غلام صغير، هو "عبد الله بن الحسن".

فيلمحُ قاتلا يُوجِّه سيفه نحو عمه، فيصيح فى براءة الأطفال "يا ابن الخبيثة أتقتل عمى".!

فيناله، ابن الخبيثة بسيفه الجبان، فيسقط على الأرض دون أن تصيب الضربة منه مقتلا، ويسارع إليه عمه فيحمله إلى مكانه مع عمته السيدة زينب التى جلست تستقبل الضحايا، وتُبصر المصاير، فى

تفويض لله، ورضًا بقضائه!!

يواجه البطل أعداءه فى جولةٍ أخيرة، فتقع ضربة سيف علـى رأسه الشريف فتدميه.. فيشدّه بعصابة، ويحمـل سيفه والـدم ينزف من كـل جسمه.

والمجرمون يَضربون.. ويضربون.. بيد أنهم لا يزالوان يرهبون دمـه، ويتجنبون مَقاتِله!!

ومرة أخرى، تخرج "السيدة زينب" من خِدْرها. فترى أخاها وحيدًا بين الوحوش، فتتقدم إلى حيث يسمعها "عمر بن سعد" قائد جيش ابـن زياد، وتصيح به:

"يا عمر..

أيُقتَلَ أبو عبد الله وأنت تنظر"؟؟!

فيُطرقُ "ابن سعد" خزْيًا وندامَة، ويصرف وجهه عنها وقـد تفجَّـرت عيناه بالدموع.. لكنه لا يستطيع أن ينسلخ مـن الموقـف الذميم الـذى ورّطهُ فيه هواه..

ويضرع "البطل" إلى أخته كى تعود إلـى مكانـها، ثـم يصيح فـى القتَلة:

"أعلى قتلى تجتمعون؟..

إنى لأرجو الله أن يُكرمنـى بـهوانكم، ثـم ينتقـم لـى مـن حيـث لا تشعرون".

ويطـير صـواب شـمر بـن ذى الجـون، فينـادى فرسـانه مـن جديـد ويأمرهم أن يقفوا من وراء مُشاتِـه ورُماتـه؛ ليمنعوهـم عـن النكـوص

إلى وراء.

ثم يصرخ فى الرماة، مُتوعِّداً إياهم المصير، عندما يرجعون لابن زياد، ويهتاج كالمسعور طالبًا رأس البطل..

ويتقدم من "الحسين" واحد فيضربه بسيفه الأثيم على معصم يُسراه فتطير كفه، ثم يتقدم ثان فيضربه بسيفه الظلوم على عاتقه، فيقع على الأرض.. ويحسبون أنه انتهىّ، فينصرفون عنه، لكنهم يُفاجأون به ينهض من جديد متوكئًا على سيفه، فيسارع إليه آخرون موجهين إليه الضربة الأخيرة..!!

ويتقدم شمر بن ذى الجون، رجْس البشرية كلها، فيجتزَ رأس البطل.. ثم يحتفظ به ليحمله هدية إلى ابن زياد، ويزيد..

تمامًا، كما قُدم من قبل رأس "يحى بن زكريا" عليه السلام، هدية لِبَغىٍّ من بغايا بنى إسرائيل..!!

* * *

كان النهار قد لفظ آخر أنفاسه..

ومالت الشمس للغروب، مُخلِّفة وراءها شَفقًا عجيبًا فى حمرته الزاهية، ووهَجه المتألِّق..!!

ولقد امتد على طول الأفق، وكأنه بساط وُضع ومُهِّد لِتعْرج عليه إلى جنان الله أرواح الشهداء..!!

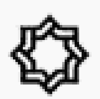
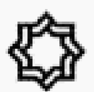
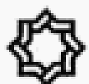
وعلى غير عادة الطقس والمناخ فى ذلك الحين وفى تلك الأرض، دوَّت طلقات قوية صادعة كأصوات الرعود.

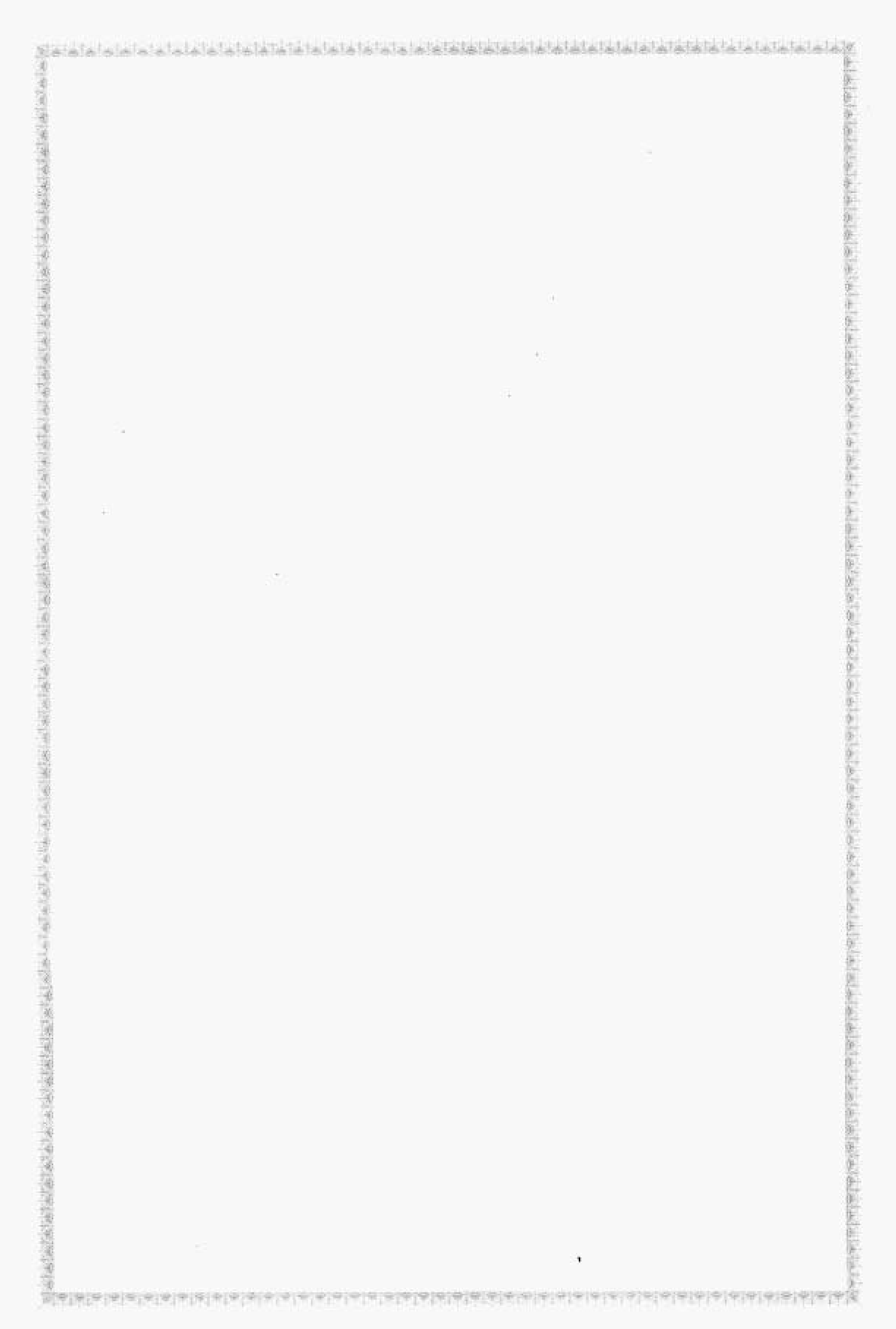
ولقد حسِبها المجرمون نذيراً لهم.. ولكنْ لا، فهُم أهونُ على الله من ذلك..

إنما هى السماء، كانت تطلق مَدافِعها تحيَّة..!!

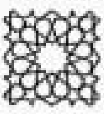
تحيَّة إجلال، للمهمة التى أنجزها الشهداء..!!

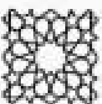
وتحيَّة استقبال للأرواح التى كانت قد بدأت رحلة خُلودها.. حيث تتلقَّى من يمين الرحمن ما أعدَّه لها من مثوبةٍ، ونعيم، وعَطاء..!!

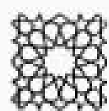


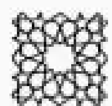
الفصل السابع

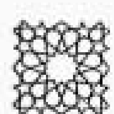


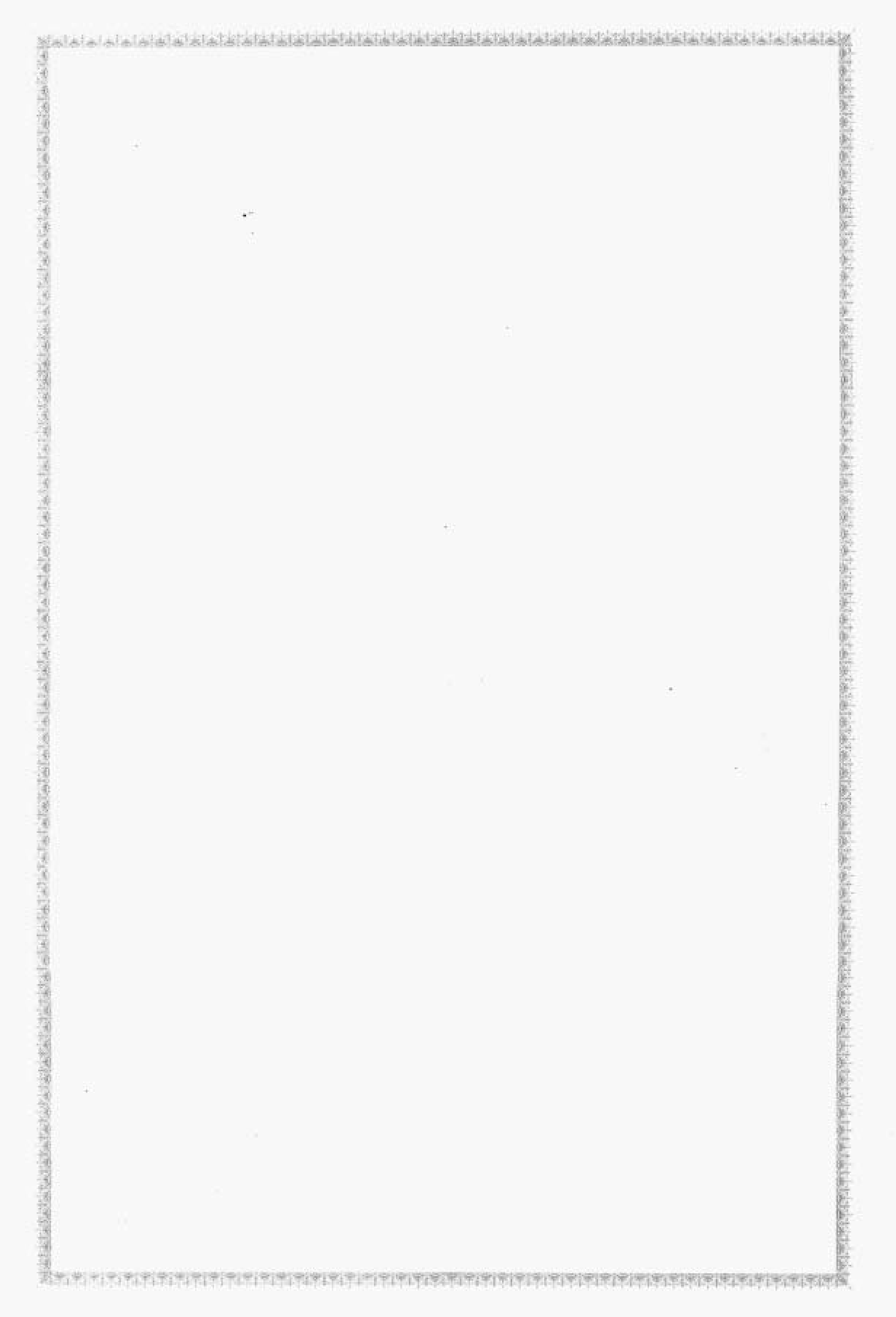


الحصـــــــــــاد والدرس









... وانتهى كل شيء، ليبدأ كل شيء!!

انتهى اليوم الرهيب بآلامه وأمجاده.. ليبدأ من جديد بدروسه وبحصاده!!

ولقد ألف المؤرخون والكتّاب أن يتمثّلوا حصاد كربْلاء، فيما أصاب قتلة "الحسين" بعد حين، من قتل وتدمير.. ثم فيما شاده المطالبون بثأره من إمبراطوريات ودُوَل سادت الأرض وعَمرتها قرونًا طِوالا..

أما نحن، فلنا وجهةُ نظر تختلف تمامًا..

فصحيح أن جميع الذين اشتركوا في قتله وقتاله، لقوا حتْفَهم على أبشع الصُور وأشدها مذلّة وهوانًا.. كلهم، من ابن زياد، إلى شمر بن ذي الجون، إلى آخر واحد من الذين تحمّسوا للباطل، ووقفوا من ابن بنت الرسول ﷺ موقف التحدي والعدوان.

ومن عجبٍ أن التاريخ تتبّع مصارعهم، فإذا هم جميعًا يُقتلون فارِّين هاربين..!!

ليس فيهم من مات ميتة رجل..

وكأنما كانت هذه أولى بشائر دعوة "الحسين" عليهم حين صاح

فيهم، وهو صامد وحده وسط سيوفهم ورماحهم قائلا :

"إنى لأرجوا الله أن يُكرمنى بهوانكم" ..!!

كلهم قتلوا وديست جيَفهُم بالأقدام.. ما عدا يزيد.. فقد ضَنَّ عليه القدر بأن يذهب قتيل ثورة أو مقاومة؛ إذ أن ذلك كان سيضعه إلى حدّ ما، فى الكفَّة المقابلة للحسين عليه السلام.

كان الناس ،سيتحدثون: أن داعية الحق قُتل استشهاداً ..

وأن ملك بنى أمية قُتل عقوبةً، وقصاصًا .. وهذه مقابلة قد تجعل منه على صورة ما، نداً أو كُفْؤًا .. الأمر الذى صمَّم القدر على حرمانه منه، فتركه يعيش أربع سنوات تعيسًا مُفزَّعًا .. ثم يموت فى يأسٍ وهوان، ونسيان..!!

* * *

نقول: صحيح أن قتلة "الحسين" لقوا جميعًا شرَّ مصرع وأسوأ نهاية لكن ذلك لا يدخل فى حسابنا بحال، ونحن نتتبع الحصاد العظيم ليوم "كَرْبلاء" ..

فليس لمقتل أولئك الأشقياء شأن يرتفع إلى مستوى ذلك الحصاد.. ولا يُكفِّرُ عن دماء الرجال، بدماء الأنذال!!

كذلك لا يدخل فى حسابنا لحصاد كربلاء، تلك الدنيا الهائلة الحافلة التى شادها المطالبون بثأر البطل من عباسيين، وفاطميين، وعَلويين.. فإن تلك الدنيا التى شادوها بكل إمبراطورياتها، ودُولها وسُلطانها لا ترتفع إلى مُستوى الجوهر النضير لتضحية "الحسين" وحياته، وثباته..

وبالتالى، لا نستطيع أن نعتبرها مَثوبةً لتلك التضحيات وذلك

الثَّبات.

إن حصاد تضحيته وتضحية رفاقه، ليُجاوز ذلـك كلـه إلـى غايـات أبعد، وأمجد، وأسمى..

وإن الدرس الذى يُلقيه يوم كربــلاء بآلامـه، وبطولاتـه.. بمأساته، وعظمته، ليتفوَّق على نظرائه فى قوة النور الباهر الذى أضاء بـه ضمير الحياة..

والآن، فإن علينا أن نتتبع مواطن العظمة والعبرة فى ذلك الحصاد.

* * *

وأول ما يلقانا فى هذا السبيل، هو أن جذوَة الحق والصمود التى أضاءهـا الحسين وأصحابه بدمائهم، لم تنطفئ ولم يَخْبُ نورهـا باستشهاده بل ازدادت ألقًا واندلاعًا على نحو يبهر الألباب..!!

وتمثَّل، وأبهى ما تمثل فى أخته العظيمة "زينب"، وفى ابنه "علـى" وهو غير "علىٍّ" الأكبر الذى استُشهد مع أبيه.

لقد توقعت الدنيا أن تحنـى الكارثـة جبـاه مـن بقـى مـن آل بيـت الحسين..

ولكن الطـاهرة البَتول "زينـب بنـت علـى" وحفيـدة الرسول ﷺ، سرعان ما ردَّت للدنيا صوابها، حين أرَتْها من عظمـة هـذا البيـت كـل عجيب..

لقد أخذ ـ عمر بن سعد ـ قائد جيش ابـن زيـاد.. أخـذ معـه إلـى الكوفة أهل بيت البطل الشهيد من سيدات وأخوات، وأطفال..

وأراد أن تكون له فضيلةٌ وسط يومـه الكئيـب المظلـم فـى كربـلاء فحافظ على أهل بيت البطل، وأكرمهم، وصانهم من كل سوء.

وتوقع ابن زياد قبل أن يُواجه آل بيت الحسين، أنه سيلْقى انكسارًا وضياعًا يستدرًان عطف قلبه الجبان.

لكن "أخت الحسين"، البطلة.. أخت البطل.. وبنت البطل.. علَّمته ـ إن كان لمثله أن يتعلَّم ـ أنَّ الهزيمة التى يتفجَّع لها الناس ويستكينون، إنما هى هزيمة الروح وما كان ولا يكون لدعاة الحق وحملة راياته أن تنهزم أرواحهم أبدا ولا أن تنحنى جباههم أبدًا..!!

ولقد لقنته هذا الدرس حين دخلت عليه ومعها أهل بيت أخيها الشهيد، فسأل: مَن هذه..؟

فلم تُجبه.. ثم كرَّر سؤاله مرتين وثلاثًا، وهى لا تجيبه، حتى أجابته إحدى خادماتها قائلة:

"هذه زينب، ابنة فاطمة، بنت رسول الله ﷺ"..

فقال ابن زياد، مُداريًا خزيه الذى أنزله به احتقار "السيدة زينب" إياه..

قال البائس التعس: الحمد لله الذى فضحكم، وقتلكم.

وهنا مزَّقت البَتول صمتَها بزئيرها العالى:

".. بل الحمدُ لله الذى أكرمنا بنَبيِّه، وطهَّرنا من الرِّجْس تطهيرًا.. وإنما يفضح الله الفاسق، ويُكذِّب الفاجر، وهو غيرنا، يابن زياد"!!

واستمرّ ابن زياد فى مُداراة خزيه أمام الناس، فعاد يسأل البطلة: كيف رأيت صُنْعَ الله بأهل بيتك..؟؟

فأجابته فى عِزَّة إيمانها وتُقاها:

"كُتبَ عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم.. وسيجمع الله بينهم

وبينك، فتختصمون عنده يوم القيامة"..!!

ورأى الجبان أنه أمام بطلة صعبة المراس، فـراح يُجيـل بصـره فـى بقية آل البيت حتى وقع على غلام مريض ظنَّ ابن زياد أنه فرصـة ليديـر معه حديثه المتوقَّح محاولا إظهار صَلَفِه وغروره.

كان هذا الغلام "على بن الحسين الأصغر" الذى صـار فيمـا بعـد إمامًا عظيمًا عُرف باسم "على زين العابدين".

سأله ابن زياد: مَن أنت..؟؟

فأجابه الشِّبل الكريم:

- عَلىّ بن الحسين..

قال ابن زياد: ألم يقتل الله علىَّ بن الحسين؟؟

فأجابه فى أناة:

- كان لى أخ أكبر منى يُسمَّى "عليًا" قتله رجالك..

قال ابن زياد فى جهالة وقحة: بل قتله الله..

فأجابه "علىّ":

"الله يتوفَّى الأنفسَ حين موتها.. وما كان لِنفسٍ أن تموت إلا بـإذن الله"..!!

ودارت الأرض بابن زياد، بعـد أن لفَحتْه إجابـة الغـلام الرجـل.. فنادى أحد جلأديه: خذ هذا الغلام واضرب عنُقه.

وتقدم الجلأد القاتل، فاعترضت السيدة العظيمة "زينـب" طريقـه، وضمَّت ابن أخيها بين ذراعيها وصاحت بابن زياد: "إذن فاقتلنى معه"..

هناك انخذل الطاغية، ولم ينل الغلام بسوء.

وبمثل مجابهتها هذه لابن زياد، كانت مجابهتها ليزيد حين أخذ الرَّكْبُ إليه بالشام، تسبقه رءوس الشهداء وفى مقدمتها رأس البطل العظيم..!!

هناك وقفت تجاهه أمام الحشد الذى جمعه ليظهر أمامه جبروته الكاذب وطغيانه الرخيص.

وقفت تقول له بملء فمها الصادق:

"إنك أمير مُسلط. تشتُم ظالمًا.. وتقهر بسلطانك.. أظننت يا يزيد أن بنا هوانًا على الله، وأنَّ بك عليه كرامة، فشمَخت بأنفك حين رأيت الدنيا مستوثقة لك..؟

ألا إنَّ الله إنْ أمهلك؛ فلأنه يقول:

﴿ولا يحْسبنَّ الذين كفروا أنَّما نُمْلى لهم خيرٌ لأنفسهم، إنما نُملى لهم ليزدادوا إثمًا. ولهم عذاب مُهين..﴾

لَترِدَنَّ على الله غدًا يا يزيد، وأنت تودّ لو كنت أبكمَ أعمى..

ولتجدنَّنا عليك مَغرمًا، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، تستصرخ بابن مرجانة.. ويستصرخ بك!!

ولَتعلَمن يوم يحكم الله بيننا، أيُّنا شرّ مكانًا وأضعف جندًا"..!!

وكما صنع ابن زياد من قبل، صنع يزيد نفس الصَّنيع، فراح يلوذ من قوارع "السيدة زينب" بتوجيه حديثه إلى الغلام المريض..!

قال له: لقد قطع أبوك رَحِمى، وجَهِل حقى، ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما رأيت.

فما زاد الغلام الرجُل على أن تلا الآية الكريمة:

﴿ما أصاب مِن مُصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلاَّ فى كِتاب مـن قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير.. ﴾

﴿لكيلا تأسَوْا علـى مـا فـاتكُم، ولا تفرحـوا بمـا آتـاكم. والله لا يحبّ كل مختال فَخور﴾..!!

راحت كلمات "زينـب" الحـارة وأنفاسـها السـاخنة، تـهبُ جَذوة أخيـها الشـهيد مزيـدًا مـن التوهُـج والـلألاءِ. فإذا النـــاس أفــرادًا وجماعات يرفعون جباههم جميعًا متحدّين ذلك النصر الرخيص الـذى أحرزه يزيد وابن زياد..

فيقف الصحابى الجليل "يزيد بـن أرقـم" رغـم كُهولـة سِنّه ووهـن جسمه، يصرخ فى أهل الكوفة:

"يا معشر العرب الذين صِرتم عبيداً.. أتقتلون ابن فاطمة وتؤمّـرون ابن مرجانة"..؟؟!!

ويقف "عبد الله بن جنيف الأزدى" لا يمنعه ذهاب بصـره، وضعـف شيخوخته، فيصيح بابن زياد أمام الملأ من الناس:

"يا ابن مرجانة.. أتقتل أبناء النبيين، ثـم تقـوم علـى المنـبر مقام الصدّيقين..!!

ألا إن الكذاب، لهُو أنت وأبوك.. والذى ولاّك وأبوه"..!!

وتنهض فى الكوفة كتائب "التوّابين" مُقْسمة أن تهب حياتـها لثـأر "الحسين"..

وتشتعل الثورة عارمة فى مكة، وفى المدينة حيث يُجرِّد لها ـ يزيـد ـ من جنده وقواده من ينزلون بالحرمَيْن المقدسـين مـن الدمـار والقتـل

والإفك ما يخجل الشيطان من اقترافه.

ولكن الجذوة المباركة لا تخبو، حتى يموت بحسرته يزيد، ويخلُفه ابنه "معاوية الثانى" .. وهنا يُوجِّه القدر الحكيم أذكى ضرباته، فيقف ابن يزيد نفسه ليحمل شعلة الحسين، ويزيد الجذوة ضِرامًا، حين يجمع الناس ليوم مشهود، ثم يُعلن فيهم ـ كما أسْلفنا من قبل ـ أن جدَّه وأباه اغتصبا الحق من أهله، وأنه يبرأ إلى الله مما جَنتْ أيديهما.. وأنه يَرْبأ بنفسه ويتقواه عن أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة..!!

ثم يعلن عليهم اعتزاله منصبه.. ويعتكف فى بيته حتى يأتيه الموت فيلقى الله تقيًا، نقيًا، سعيدًا ..!!

* * *

ويلقانا من حصاد كربلاء ودروسها العظيمة، جلالُ الإيمان وسلطانه القاهر..

فالحسين رضى الله عنه حين خرج إلى الكوفة لم يكن طالبَ دنيا ولا جاه.. إنما كان مستجيبًا لسلطان الإيمان الذى لا يُعصى ولا يُغلب.

ولقد رأى الإسلام بكل قِيَمِه الغالية وأمجاده العالية. يتعرض لمحنة قاسية يفرضها عليه بيت أبى سفيان.

ورأى خطيئة الصَّمْت والسُّكوت تجتاح الناس رغْبةً أحيانًا، ورَهْبةً أحيانا .. كانت بيعة يزيد دعما لسلطان الجاهلية على حساب الدين.. ودعما لسلطان القبيلة والأسرة على حساب الأمَّة..

وهكذا صارت مقاومتها دعْمًا لسلطان الدين والأمة معًا.

ولئن فات "الحسين" دعم هذا السلطان فى النظام العام عن طريق

الخلافة، التى لم يكن له من أمرها شىء، فإنه لم يتخلَّ عن واجب دعْمِهِ فى الضمير، عن طريق التضحية والصمود والفداء.

وهكذا.. وفى سبيل إيمانه الوثيق والعريق ضحَّى البطل الشهيد براحته، ثم بحياته.. وضحى معه أهله الأقربون، وصحبه الأكرمون.

ولقد يبدو لبعض الذين يفكرون فى عجلة، أن "الإمام الحسين" ومن قبله والده "الإمام على" كانا بإيمانهما، وبما ينشدان للحياة وللحُكم من ورع وتقوى يمثلان جُموداً لم تعد تطيقه الحياة بعد التطور البعيد الذى حققه الإسلام وانْفعل به.

فالحق أنهما على العكس تمامًا، كانا يُمثلان رُوح التقدّم وضميره..

بينما كان الآخرون من بنى أمية بتحويلهم الدين إلى مزرعة أموية.. وبتحويلهم الخلافة إلى مُلكٍ يحتكرونه ويتوارثونه، وبتحويلهم السلطة إلى سوط.. وبإشاعتهم النزعة القبلية بعد أن أذابها الإسلام فى وحدته الصُلبة. كانوا بذلك كله يمثلون الرجعية المنتكسة إلى عادات الجاهلية وتقاليدها.

لقد كانت تُضىء إيمان الحسين وتَسْتجيشه دومًا، تلك الكلمات الصادقة التى قالها جَدّه العظيم رسول الله ﷺ:

"هلاكُ أمتى على أيدى أُغَيْلِمَة من قريش".

وها قد جاء زمان الأغيلمة مُمثَّلاً ومُمثَّلين فى يزيد، وابن زياد، وما حولهما من بطانة الإثم والسوء..!!

وهناك حقيقة كان يدركها "الحسين" تمامًا، ويدركها أبوه "الإمام" من قبله ـ هى أن بلاط معاوية وجيش الشام نفسه قد أفسحا

مكانًا رحبًا وعريضًا لكثيرين من الموتورين الذين تظاهروا بالإسلام ليندسُّوا بين صفوفه مخرِّبين ومُدمِّرين.

فالإيمان الذى حمل "الحسين" لواءه، وذهب شهيده كان لهذا كله، وبهذا كله، إيمانًا مستنيرًا وواعيًا ورشيدًا.

كذلك نواجه من حصاد كربلاء ودروسها، ذلك الدرس العظيم عن عظمة التضحية، وقداسة الحق.. فالقدر الحكيم، يرتفع بالتضحية فى "كربلاء" إلى أعلى مستوياتها المرموقة، ويجعل منها ومن الحق "قيمة مطلقة" تُحقق ذاتها داخل ضميرها أولاً.. ثم تعكس جلالها وسلوكها على الزمان والمكان بعد ذلك..

إنه يفصلها عن كل شئ عداهما، حتى عن النصر ذاته..

وهكذا رأينا اثنين وسبعين مقاتلاً يصمدون لأربعة آلاف فارس يومًا بأكمله ثم يستشهدون جميعًا بعد أن يُنزلوا بعدوِّهم خسائر فادحة تمثَّلت فى زيادة أعداد قتلاه عن عدد أولئك المستشهدين.

كأنَّما أراد القدر أن يقول لنا: إن الدرس الذى أريد إلقاءه اليوم، ومن فوق مِنصَّة كربلاء الشاهقة، لا يتمثل فى قدرة القلة المؤمنة على إحراز النصر على الكثرة الساحقة، فطالما ألقيتُ دروسًا من هذا الطراز.

إنما درس اليوم عن عظمة التضحية وقداسة الحق. درس اليوم فحواه أن التضحية قيمةٌ بذاتها، وأن الحق قيمة بذاته..

وهما لا يستمدان جدارتهما ومكانتهما مما يُحرزان من نصر. أو يكتسبان من مَغْنم وسلطة.

فالانتصارات والمغانم يظفر بها الباطل أحيانًا، ويحققهما

الإذعان أحيانًا.

وإذن فالصِّفة المميَّزة للتضحية، أنها التضحيـة وحسـب.. والصفـة المميزة للحق، أنه الحق وكفى..

والمثوبة العظمى التى ينفرد بها أبطال التضحية وأبناء الحق، هـى انتماؤهم العظيم للتضحية وللحق..

أجل.. هذا هو الدرس الجليل الذى كان القدر يلقيه علـى الدنيـا فـى يوم كربلاء، متخـذًا مـن حركـة القتـال وسـير المعركـة وسـائل إيضاح..!!

فهو يدعُ الآلاف من فرسان ابن زياد يترنحون تحت ضربات "اثنيـن وسبعين" لا غير من أنصار "الحسين" وأبنـاء الحـق؛ ليكشـف ـ أعنـى القَدر ـ عن قدرته على إبادة ذلك الجيش لو أراد.. لكنه لا يريـد؛ لأنـه يُعِدّ هذه المعركة وذلـك القتـال لمغـزىً آخـر يؤكِّـد شـرف التضحيـة وقداسـة الحـق مُسـتَعليَيْن بذاتـهما عـن كـل شـىء حتـى عـن النصـر والنجاح!!

* * *

ولقد أبرزت بطولات كربلاء شرف التضحية على نحو باهرٍ وجليـل، حتى لنكاد نحسب أن الأقـدار إنمـا أرادت ذلـك اليـوم بكـل أهوالـه وتضحياته لتؤكد شرف التضحيـة فـى وعـى البشرية كلـها، ولتضـىء بمغزاه ضمير الحياة..

من أجل ذلك، اختارت لها فى يوم كربـلاء، نمـاذج رفيعـة، بالغـة الرِّفعة.. وقضية عادلة، بالغة العدالة.. ونضالاً باسلاً، بالغ البسالة..

إذن هى شرف الإنسان وشرف الحياة.

وما دامت التضحية شرفًا، فيجب أن يُصرف النظر عن الشكل الذى يفرضه عليها الاضطهاد والبغى. فالتضحية ليست حفلاً ساهرًا.. وسواء على البطل أن يستشهد وجسده سليم.. أو يقضى، وجسده ممزّق.. أن يبقى رأسه مكانه من الجسد، أو يُفصل الرأس ويُمثل بالجسد!!

كل ذلك، وأكثر من ذلك يُغطّيه شرف التضحية، ويُحوّل أساه إلى مَجد.. وفواجعَه إلى بطولات!!

ومن شاء فلينظر، فهؤلاء نفرُ من أكرم الخلق، وأتقى الناس، تُمزّق أجسادهم بسيوف الباغين، ثم تُجتّزُ رءوسهم ـ اثنان وسبعون رأسًا ـ وتغرس فى أسنَّة الرماح..!!

فهل انتقص ذلك مثقال ذرَّة من شرف التضحية وعظمتها.؟

أبدًا.. بل زادها تألُّقًا وشرفًا..

إن الأجساد بمجرد إلقائها النفس الأخير يُزايلها الإحساس بالألم.. ثم تنال الأرواح مكانها العالى عند الله بقدر بلائها وتضحياتها، كما تنال مكانها العالى فى ضمير التاريخ بقدر بذلها وعطائها.

ومن ثمَّ فالناس يخطئون عندما يقفون أمام شكل التضحية وما يصاحبها من ألم وفاجعة، ثم لا يجاوزون هذا الشكل إلى جوهر التضحية، حيث العظمة والجلال..!!

ولقد أدرك هذه الحقيقة، وعبَّر عنها فى أصالة عظيمة، بطل الإسلام "خالد بن الوليد" حين تمثَّل مأساة حياته فى موته على فراشه، محرومًا من شرف القتل على أرض المعارك والنضال. فقال قولته المأثورة:

"لقد شهدتُ كذا، وكذا زحفًا.. وما فــى جســدى موضـع إلا وفيـه ضربةُ سيف، أو طعنة رمح، أو رمية سهم.. ثم هأنذا أمـوت علـى فراشـى حَتْفَ أنفى، كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجُبناء"..!!

* * *

وفى واقعة كربلاء هذه، يتألق ذلك المغزى تألق النهار.

فإذا كانت فى شكلها الخارجى تبعث الأســى والحـزن، فإنـها فـى جوهرها العظيم تســتجيشُ كـل مـا فـى النفس البشـرية مـن إعجـاب وإجلال.

إنها تبدو، وكأنها مهرجان للحق بالغ الروعة!!

وتبدو، وكأنها عيد للتضحية نادر المِثال!!

إن المسلمين يحتفلــون كـل عـام مـرة بعيـد الأضحـى، ويسـمونه "العيد الأكبر".. فماذا كانت مُناسبة هذا العيد فـى التـاريخ..؟ كـانت مناسبته التضحية.. ولا شيء سواها..

فخليل الرحمن "إبراهيم" أراد القدر أن يلقِّن البشـرية عـن طريقـه درسًا ليس كمثله درس فى تقديس مشيئة الله وتلبية ندائه وأمـره، فدعـاه أن يذبح ولده فسارع من فوره وشـحذ سـكِّينه وتَـلَّ ولـده للجبيـن وفـى اللحظة الباهرة ملأ الوحى روعه وفؤاده:

﴿يا إبراهيم، قد صدَّقْتَ الرؤيا.. إنَّا كذلك نجزى المحسنين﴾.!!

فـهل اتخـذ الإسـلام مـن تلـك المناسـبة عيـدًا، لأن الله افتـدى "إسماعيل" بِذِبْحٍ عظيم..؟!

كلاَّ، فلقد كان سيحتفل بها أيضًا لو انتـهى الأمـر إلـى أن يكـون "إسماعيل" الذبيح والقُربان..

ذلك أن الإسلام يحتفل بمضمون الموقف وجوهره ـ التضحية بأعز شىء.. وفى سبيل ربّ كل شىء، وإله كل شىء..!!

ولقد وقف "الحسين" وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفًا استحق ببطولاته وتضحياته أن يكون للتضحية عيداً، أىّ عيد..!!

لقد رفضوا الباطل، واختاروا الحق..

ثم رفضوا الصَّمت، وآثروا المقاومة..

ثم رفضوا المساومة، وصمدوا مع إيمانهم..

ثم لما رأوا أنفسهم اثنين وسبعين، وسط أربعة آلاف فارس ورامٍ، ولم يعد هناك أدنى ريب فى أن الموت هو الذى ينتظرهم، واقتحموا الهَوْل فى مشهد مجيد، مُقرِّين بمحض اختيارهم وإرادتهم أن يمنحوا أمتهم، بل والبشرية كلها هذه القدرة الرائعة فى التضحية.. وهذا العيد الممجَّد للفداء..!!

وفى جلال المُفْتدين، وإخبات المتقين، راحوا يؤدون مهمتهم القاسية والعالية، حتى أنجزوها فى نجاح عظيم..!!!

* * *

وإنى لأكادُ أرى المعركة أمامى..

أرى وَقْع السيوف، وقَذْف الحراب.. أرى قطع الرقاب، وتمزيق الأجساد.. أرى وحشية المجرمين، وصمود المتقين..

أرى ذلك كله؛ فلا يخدعنى الشكل الفاجع عن الجوهر المجيد..!

ولا تصرفنى مأساة الموت، عن عظمة الشهادة..!

ولا يشغلنى مأتم الأرض، عن انبهار السماء..!!

أجلْ.. لكأنى أرى السماء يومها مُبْتهية وهى ترى الحق يستعيد

قداسته فى ذلك اليوم الرهيب، ويُثبت استعلاءه بهذا الصمود العجيب.!!

ثم، وهى ترى حكمة الله فى اختياره تتجلّى..

فقديمًا، وعندما كان الرسول عليه السلام فى بدء دعوته، قال كُفار قريش: أوَلم يجد الله غير ذلك البيت الهاشمى الفقير ليختار منه رسوله..؟؟

فأجابهم الوحى صادعًا رائعًا:

﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

أجَلْ، الله أعلم..

وها هو ذا عِلْمُه يتألق للدنيا، ولا كمثله تألق النهار..

فالرسول ﷺ لم يكن وحده بطل التضحيات، لأنه رسول.. بل ها هو عمه "حمزة" بطل الإسلام فى "أُحد" تمزقه السيوف والأحقاد، حتى تستقر كبده بين أنياب "هند" زوجة أبى سيفان..

وها هو ذا "جعفر" ابن عم الرسول ﷺ، بطل "مُؤته" تحصد جسده سيوف الروم..

وها هو ذا "على" ابن عم الرسول ﷺ.. بطل الإسلام فى كل غزواته ومشاهده.. وبطله فى وجه الوثنية الأموية التى أرادت أن تُحوِّله إلى مُلك عضوض ـ يمضى هو الآخر شهيد اغتيال أثيم..!!

وها هو ذا "الحسن" بطل السلام فى الإسلام، تغتال عصابة الشيطان حياته بالسُّم، ويأخذ مكانه العالى بين الشهداء..!!

ثم ها هم أولاء، أبطالٌ كرام من نفس البيت الممجَّد والعظيم،

يصارعون أربعة آلاف مدجّجين بالجريمة والسلاح.. وليس معهم فى ذلك اليوم الرهيب سوى خمسين ناصرًا أو مُقاتلا.

ويتقدم الاثنان والعشرون إلى التضحية والموت فى استبسال مُعجز.. ويعانقون الشهادة جميعًا، لا يبقى منهم سوى فتىً مريض..!!

أليس حقًا، أنَّ الله أعلمُ حيث يجعل رسالته..؟؟

أليس حقًا ذلك يا رجال..؟!

فأى شىء فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته؛ فنرى فيه وجه المأساة ولا نرى أمجاد البطولة..؟؟

ألأنهم قاتلوا ظِماء، وماتوا ظِماء، بينما أمواه الفرات تتفجَّر أمواجها على بُعد خطوات..؟؟

وأىّ بأس، وهم بعد ساعات معدودات سيكون لهم كَوثر الرحمن كله.. يشربون منه عَلَلاً بعد نَهْل..؟!

الآن نكاد نعرف.. فلكأن هذا اليوم كان فى حساب الوحى يوم نزل على الرسول ﷺ من ستين عامًا مضت مُعزيًا ومُبشرًا وقائلا:

﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾..!!

وأى شىء فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته..؟؟ ألأنهم وحدهم فى تلك الفلاة يقاتلون، وهناك فى طول البلاد الإسلامية وعرضها ملايين البيوت أوى إليها أهلها، واستقروا آمنين تحت سقوفها..؟؟

وأىّ بأس؛ ما دام الله سبحانه قد ترك الملايين من تلك البيوت، ثم اختصَّ هذا البيت وحده بأعظم ما فى الدنيا من مجد وشَرف ـ شرف اصطفائهم لحمل رسالته، وإعلاء كلمته..!

وأىّ شىء فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته..؟ ألأن المعركة

ستُخلّف أجسادهم فوق أرضها صرعى بينما المجرمون يتلمّظون بنصر تعس رخيص..؟!

سلوا الله إذن عن حكمته فى تلك الصفوف العارمة من القدّيسين والأبرار الذين صرعهم الباطل عبر التاريخ من كل أمة، وعصر، ودين..!!

أم لأنَّ رأس "الحسين" سيُفصل عن جسده، ثم يحمل هدية لابن زياد، ويزيد..؟

سلوا الله إذنَ عن حكمته فى رأس "يحيى بن زكريا" نبيّه الكريم والعظيم حين فُصل عن جسده، وقُدم هدية لِبَغيٍّ من بغايا بنى إسرائيل..!!

أم لأننا سنرى الفتى المريض المُجهد - "على بن الحسين" الذى فقد فى المعركة أباه، وإخوانه، وأعمامه يُقيَّد بالأغلال ويُطوَّف به فى شوارع الكوفة التعِسة..؟؟

ألا فلْنحطّم مقاييسنا الجاهلية الضريرة، إذا أردنا أن نبصر جوهر الأشياء..

وإذا لم يكن بُدّ لأقدامنا أن تبقى على الأرض، فلترتفع عنها عقولنا ورؤانا، إذا أردنا أن نتعرف إلى حكمة السماء..!

وإذا كانت وحشية المجرمين سترينا فى كربلاء وجه الفاجعة التى تُذيب الصخر، وتصهر الحديد.. فإن شرف التضحية وجلال الحق سيريانتا فيها روعة المهرجان ومجد العيد..!!

* * *

ونختتم حصاد كربلاء ودروسها بمثوبة التضحية.. فتعلّمنا دروسها

العظيمة أن التضحية مَثوبةُ نفسها ، وانها مادامت فى سبيل الحق، فإن انتظار الأجر عليها جهل "بقيمتها" إلا أن يكون هذا الأجر رضِا الله، ورضوانه، وجنانَه..

وليس معنى كون التضحية مثوبة نفسها أنها تحرم أبطالها من مزاياها وعطاياها.. وإنما معناه أنها ترتفع بتلك المزايا والعطايا إلى مستوىً من القداسة، والقدوة، والخلود، يُزرى بكل مغانم الدنيا العاجلة وأمجادها الزائلة!!

إن مظاهر الرقيِّ البشرى كثيرة، ولكنَّ شرف الإنسان وجدارته بالحياة لا يزالان، وسيظلأن منوطَيْن بقدرته على التضحية النبيلة والجليلة من أجل الحق.

واللوحة التى رسمتها تضحيات "الحسين" وأهله وصحبه بوّأت هذا الشرف وتلك الجدارة أعلى المنازل والذرّى..

إنهم لم يُقدموا على تضحية يرجى من ورائها النصر. بل أقدموا على التضحية من أجل التضحية ذاتها..

وهكذا جعلوها وسيلة وغاية..

كما أكدوا معنى أنها مَثوبةُ نفسها، وأنها قيمةٌ بذاتها!!

* * *

وبعد، فأكاد أسمعكم تقولون: إنك لم تحدثّنا عن أجساد الشهداء الأبطال، أين استقرت،..؟ ولا عن رأس "الحسين العظيم" أيَّانَ مصيره، ومُرْساه..؟؟

أما أجسادهم الكريمة، فقد استقرت تحت الثرى الدامى لأرض كربلاء..!!!

فعلى أثر رحيل جيش ابن زياد خفَّ إلى مكان المعركة نفرٌ من بنــى أسد، كانوا ينزلون بالقرب منها، فدفنوا جثمان البطل العظيــم.. وعنـد قدميه دفنوا جثمان ابنه الحبيب "على بن الحسين"، ومن حولهما دفنوا أجساد بقية الشهداء الممجَّدين.. وحيث وقع "العباس بن علــى" أخـو "الإمام الحسين" شهيداً، دفنوا جثمانه الكريم.

* * *

وأما رأس البطل، فقد راحت البقاع الإسلامية تتنافس ادِّعاء شرف إيوائـه، فيدَّعـى كـل منـها أن الـرأس عندهـا يُعطـر أرضـها، ويبـارك حماها!!

لكن لا يُعرف على وجه اليقين أين هو..

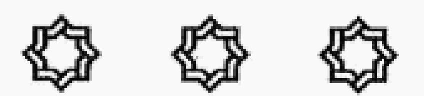
وذلك أمر يتَّسِق مع حياة البطل ومصيره.!!

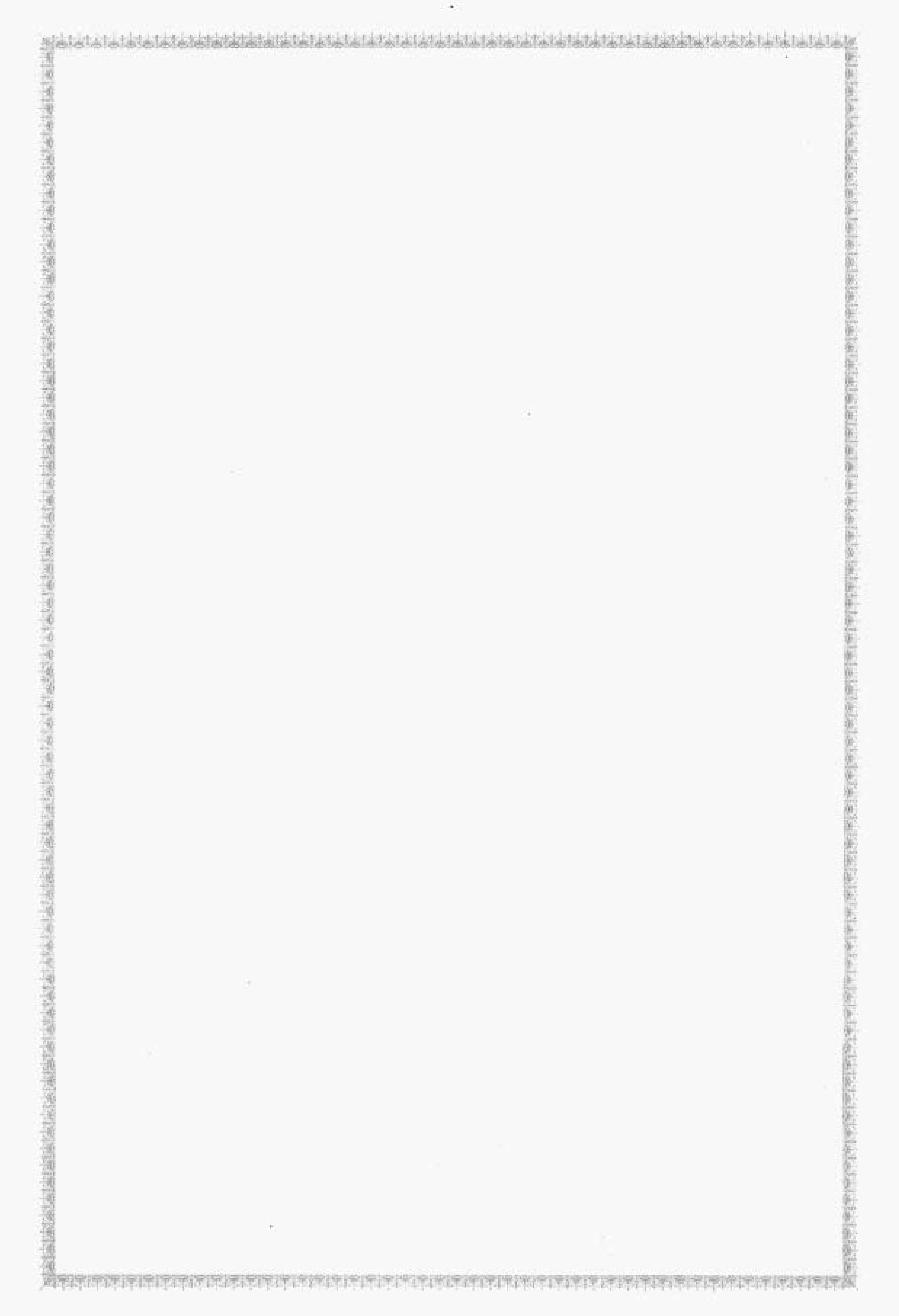
فرأس الحسين، بكل ما مثَّله من صمـود وعظمـة وتضحيـة لـم يعُـد مِلكًا للحسين، ولا ملكًا لجسده..

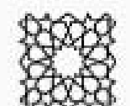
لم يعُد ملكًا لأرض.. بل ولا لدين دون دين..

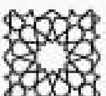
لقد صار ملكًا للبشرية الراشدة فى كل زمان ومكان.

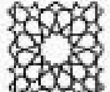
صار ملكًا للحق، يرفعه فى أوديتـه العـامرة والثـائرة لـواءً وقـدوة، ويملأ بِسَناه إرادة الحياة عزمًا، وضميرها نورًا.. وكذلك صـارت رءوس أهله وصحبـه.. مشاعل فوق طريق الحق، والشرف، والإيمان!!



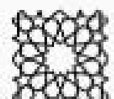


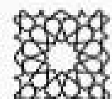


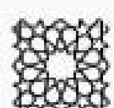


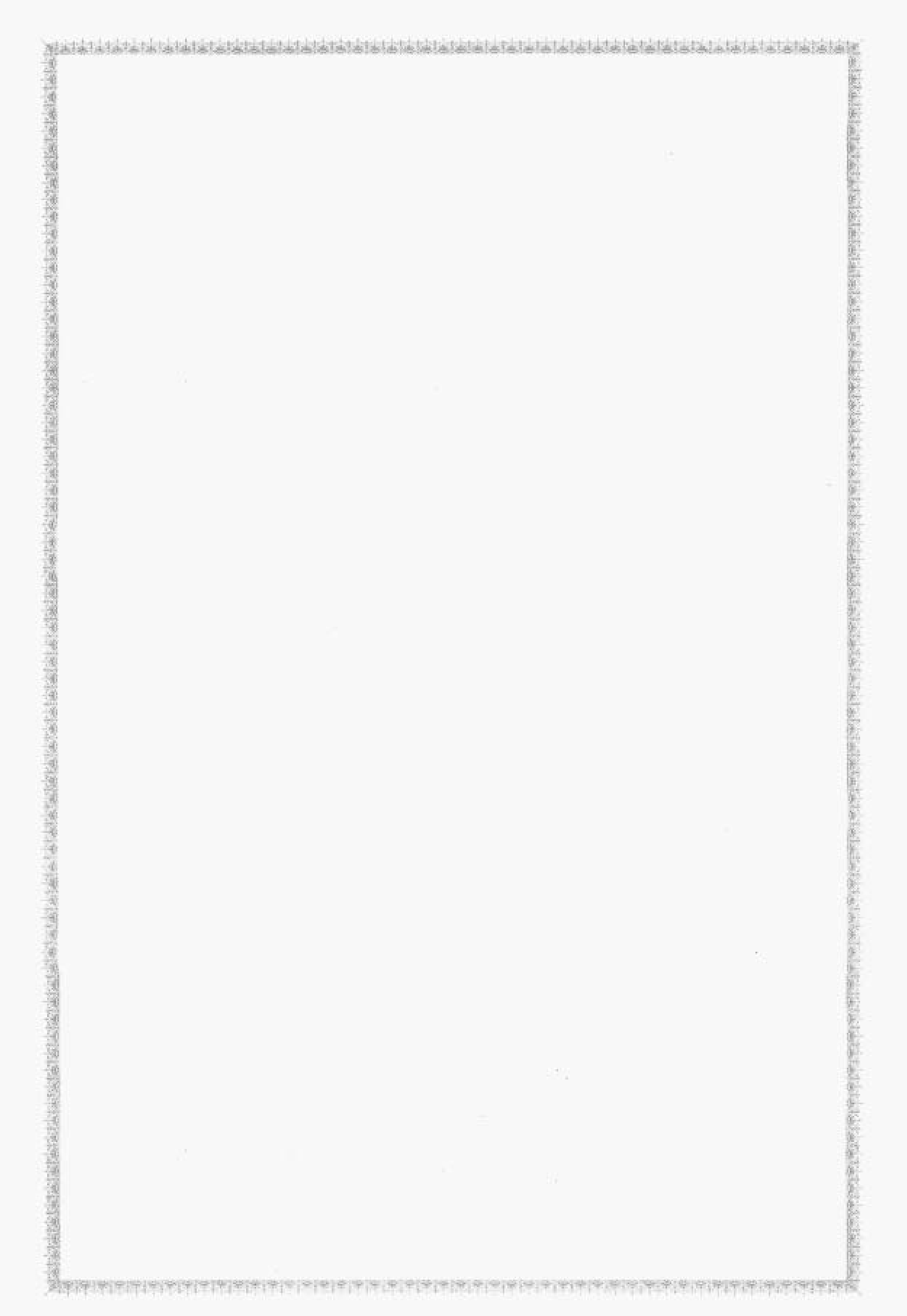


فهـــــرس الكتـــــــاب

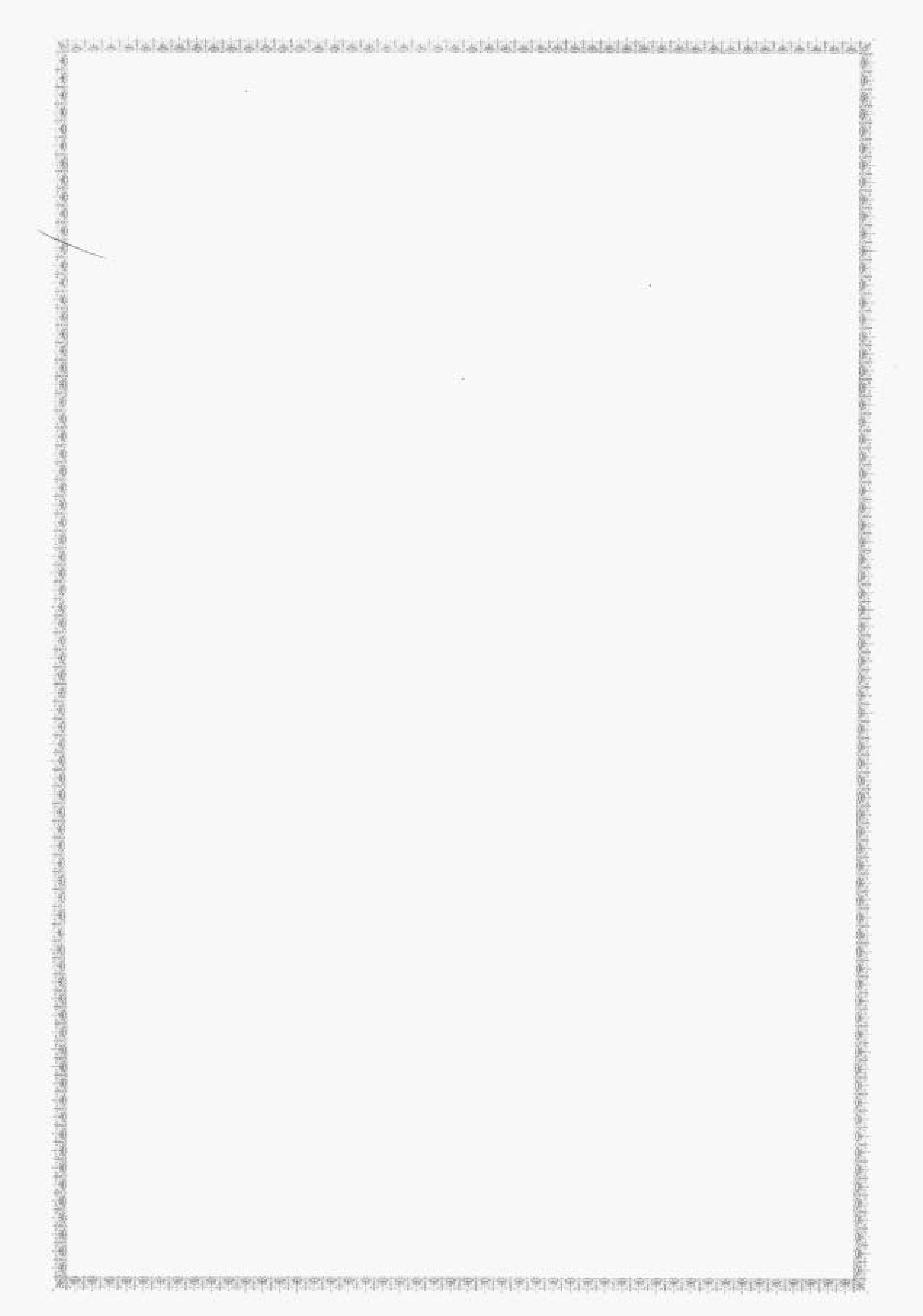


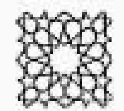


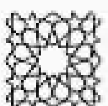




في هذا الكتاب

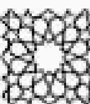
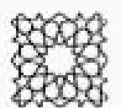
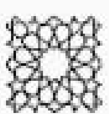
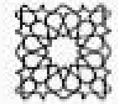


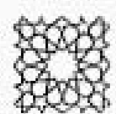


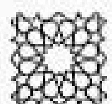


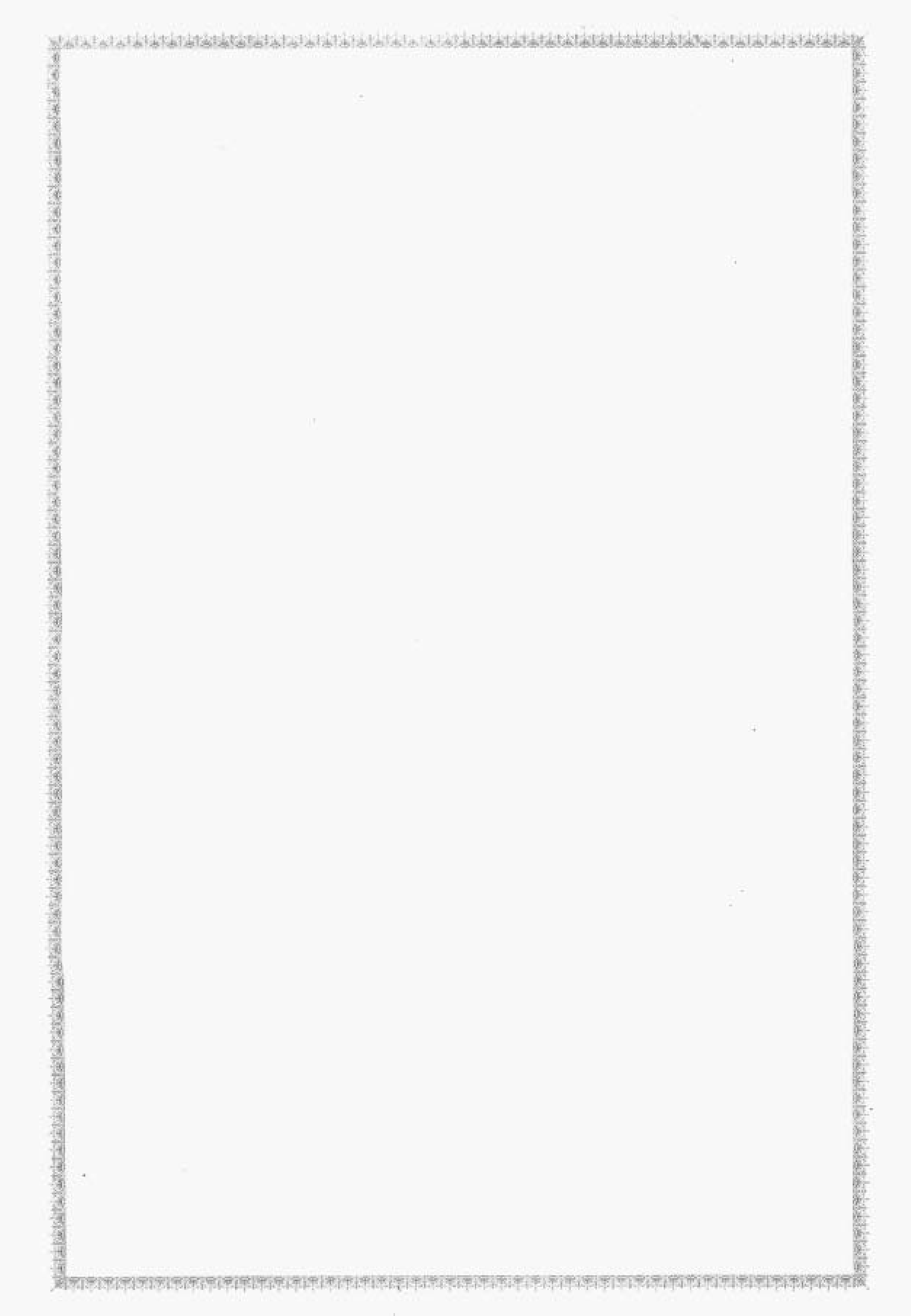


تعريف بالمؤلف







خالد محمد خالد
(المتوفى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٢٠ ميلادية، فى "العدوة" إحدى قرى محافظة الشرقية بمصر، والتحق فى طفولته بكتاب القرية، فأمضى به بضع سنوات، حفظ فى أثنائها قدرًا من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة..

ولما عقد والده ـ الشيخ محمد خالد ـ عزمه على أن يلحقه بالأزهر الشريف، حمله إلى القاهرة، وعهد به إلى ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولى تحفيظه القرآن كاملاً، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر فى ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله فى وقت قياسى وهو خمسة أشهر كما بين ذلك مفصلاً فى مذكراته "قصتى مع الحياة" ـ ثم التحق بالأزهر فى سن مبكرة، وظل يدرس فيه على مشايخه الأعلام طيلة ستة عشر عامًا حتى تخرج فيه، ونال الشهادة العالية من كلية الشريعة سنة

١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجًا وأبا لاثنين من أبنائه.

عمل بالتدريس بعد التخرج من الأزهر عدة سنوات حتى تركه نهائيًا سنة ١٩٥٤، حيث عين فى وزارة الثقافة كمستشار للنشر، ثم ترك الوظائف نهائيًا بالخروج الاختيارى على المعاش عام ١٩٧٦.

وبُذلت له عروض مغرية كثيرة لنيل وظائف قيادية فى الدولة، سواء فى رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر عنها، ورفض عروضًا أخرى كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن يبقى فى حياته البسيطة المتواضعة التى يغلب عليها الزهد والقنوع(*).

وقد تقلّبت حياته فى أطوار متعددة، من حفظ مبكر وسريع للقرآن الكريم، إلى طالب نابه بالأزهر الشريف، إلى شاب متعطش للمعرفة، تواق إلى أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلى منغمس فى السياسة مشغول بها، إلى خطيب بارع تهز خطبه السياسية أعواد المنابر، ثم إلى واعظ تغمر دروسه وخطبه القلوب بنشوة الإيمان، إلى عابد مشغول بالآخرة، وصوفى مشغول بربه، وهكذا.. وقد شرح ذلك بالتفصيل فى مذكراته التى كتبها وجعل عنوانها "قصتى مع الحياة".

وفى سن مبكرة التقى بشيخه المربى الكامل الشيخ محمود خطاب السبكى إمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام ـ كما وصفه هو ـ وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهدًا على ما يفيض الله على أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه (**).

(*) انظر "قصتى مع التصوف" لخالد محمد خالد نشر دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(**) انظر قصتى مع التصوف.

وصفه بقوله: "إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ما هو شهي وندى.. يوقع الكاتب فى حيرة.. وهكذا يكون شأننا مع أنبياء الله والمرسلين.. ومع أوليائه المقربين.. فنحن ننشق عبيرهم الذى يتضوع بهاء وعطراً.. ونتقلب فى نعماء ما آتاهم الله من نور وهدى وحكمة.. بيد أن الاقتراب منهم يفرض علينا من التبعات ما لا نطيق.. والحديث عنهم، وتفسير مواقفهم، أمر يعسر تناوله إلا على من يجعل الله عسره يسراً "(*) .

***

وكما كانت حياته فى بواكيرها كالنهر الذى تجيش مياهه بالفيضان، وتتقلب فى تدفق وعنفوان، فإنه كلما اقترب من البحر هدأت أمواجه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صار له هدوؤه وشموله واتساعه..

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك؛ بدأت ثائرة متدفقة..وانتهت إلى الرسوخ واليقين.. وفى كلها كان مخلصًا، لا يبتغى بأى منها عرضًا من أعراض الدنيا. بل لقد جاءته الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوصد دونها بابه ...

ومثال على ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه فى مجلس قيادة الثورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كان يشترى منها ـ من جيبه الخاص ـ مئات النسخ ويوزعها على زملائه الضباط (**)، ومع ذلك فإنه لمّا قامت الثورة لم يرد أن

(*) من مقدمة الكتاب "فى صحبة الشيخ محمود خطاب إمام السنة وقطب الأقطاب" للأستاذ توفيق أحمد حسن، دار المقطم بالقاهرة.

(**) انظر "قصتى مع الحياة " فصل: حوار مع عبد الناصر.

يستفيد منها، وكانت فرصته فى ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف ناقدًا للثورة موجهًا لها، مطالبًا حكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية أبدًا" بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

وظلت هذه مواقفه من الثورة ورجالها حتى تُوجت بموقفه الفريد فى "اللجنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها انتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم ـ حينئذ ـ ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب.. بعد أن نزعوا أموالهم غصبًا وظلمًا، ونكلوا بهم بغير جريرة ارتكبوها، فصاروا بعد عز فى ذل، وبعد غنى فى فاقة وعوز، وبعد أمن فى خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم، أو ينتصر لهم.. فكان هو الصوت الوحيد الذى ارتفع فى وجه الصمت والخوف، مدافعًا عن الحق، طالبا لهم ـ بدلاً من العزل السياسى ـ "العدل" السياسى، ولما أخذ التصويت فى المجلس على من يعترض على إجراءات العزل السياسى، كانت يده هى الوحيدة التى ارتفعت فى سماء القاعة التى ضمت ـ يومئذ ـ ثلاثمائة وستين عضوا (*).

***

منذ كتابه الأول "من هنا نبدأ" خرج خالد محمد خالد على الناس ككاتب فذ، وصاحب فكر، ومنافح عن قضايا الأمة.. وبذا تحدد موقعه كمصلح اجتماعى وزعيم فكرى تعلقت به جماهير غفيرة من الناس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس فى مصر وحدها، بل

(*) انظر "قصتى مع الحياة "فصل: حوار مع عبد الناصر.

وخارجها أيضا..

وطبع "من هنا نبدأ" ست طبعات فى سنتين اثنتين، وتُرجم فى نفس السنة التى صدر فيها إلى الإنجليزية فى أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل وأبحاث جامعية ومقالات فى أنحاء متفرقة من أوربا وأمريكا..

ولكن فطرة المؤلف النقية، ونيته الصادقة جعلاه ـ فيما بعد ـ يقول إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه.

وهنا يتجلى واحد من مواقفه التى امتلأت بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعى إليه فيه من فصل الدين عن الدولة ويقلبه فى ذهنه حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأى، فلم يخجل ـ وهو الكاتب الكبير ـ من أن يعلن أنه أخطأ.. وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته.

فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية.. ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتابًا كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة..

حق وقوة..

ثقافة وحضارة..

عبادة وسياسة.."

***

وقد خلف ـ رحمه الله ـ ثروة علمية كبيرة تربو على ثلاثين كتابا، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التى لم تجمع بعد.. وقد نفع الله بأعماله تلك نفعا كبيرا، وتلقفها القراء فى شوق، لأنها ـ ككل أعماله اتسمت بالإخلاص، وتدفقت بالعاطفة الصادقة الجياشة..

وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشارا هى الإسلاميات التى جاءت فريدة فى بابها من حيث الأسلوب، وطريقة التناول، وأشهرها على الإطلاق "رجال حول الرسول ﷺ" الذى تحدث فيه باقتدار عن سيرة ستين من أصحاب رسول الله ﷺ، و "خلفاء الرسول ﷺ" الذى ضم بين دفتيه خمسة كتب عن الخلفاء الراشدين:

١ـ "وجاء أبو بكر"

٢ـ "بين يدى عمر"

٣ـ "وداعًا عثمان"

٤ـ "فى رحاب على"

٥ـ "معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز"

وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات كثيرة فى أنحاء عديدة من العالم..

ومن كتبه أيضًا: "أبناء الرسول فى كربلاء" و "والموعد الله" و "لقاء مع الرسول ﷺ" و "كما تحدث الرسول ﷺ" و "كما تحدث القرآن" و "إنسانيات محمد ﷺ" و "عشرة أيام فى حياة الرسول ﷺ" وغيرها..

أما كتبه السياسية والإنسانية والاجتماعية والفلسفية فهى عديدة كتب منها ثلاثة كتب فى موضوع الديمقراطية وحدها، وهى:

"الديمقراطية أبدا" و "دفـاع عـن الديمقراطيـة" و "لـو شـهدت حوارهم لقلت".. راجع قائمة المؤلفات فى آخر الكتاب..

وكتب - أيضًا - مذكراته فـى كتـاب "قصتـى مـع الحيـاة"، وقـد نشـرت لأول مـرة فـى جريـدة "المسلمون" السـعودية و "المصــور" المصرية فى آن واحد، وبعد أن تمـت طبعـت فـى جـزء واحـد فـى مؤسسة أخبار اليوم، ثم طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.

وكان آخر كتبه "الإسلام ينادى البشر"، وقـد أراد لـه أن يخـرج فى ثلاثة أجزاء:

الأول: إلى هذا الرسول ﷺ"

الثانى: "إلى هذا الكتاب" (القرآن)

والثالث: "إلى هذا الدين"

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

***

أما عن عادته فى الكتابة، فإنه لم يكن يجلس للكتابـة - قـط - إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك، وتكون الفكرة التى يريد الكتابـة عنها قد نضجت، وطلبت الظهور، حينئذ يجلس فـى أى مكـان، وفـى أى ظروف ويبدأ فى الكتابة دون أن يلتفت لما حولـه أو ينشـغل بـه.. وقد تمضى - أحيانا - من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئًا لأنـه لم يجد ما يهيج فى نفسه الدافع للكتابة..

وقد اتسمت كتاباته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة على التعبير والغوص إلى جوهر الأشياء، ووصفها بيسر وروعة، واقتـدار. وكـان كثيرًا ما يُسأل عن السر فى جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب فى الكتابة لا يصنعه شىء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاكر النابلسى فى كتابه الذى كتبه عنه نموذجًا من كتابته، وجعله تحت عنوان "عزف لغوى"(*)، وهو العنوان الذى يصف رشاقة أسلوبه وجماله، ونفوذه إلى القلوب..

***

وكان ـ رحمه الله ـ طيب النفس، مستبشرًا فى عامة أوقاته، تغلب عليه السكينة والتأمل..

وكان غاية فى الكرم، غاية فى التواضع ونبل الأخلاق، بارًا بوالديه وصولاً للأرحام مراعيًا لحقوق الزمالة والجيران، ساعيا ـ إلى آخر أيامه ـ فى قضاء حوائج الناس، لا يمل من كثرة قاصديه، ولا يضجر من إلحاح بعضهم عليه حتى فى أوقات مرضه، وكان يقول: "تلك زكاة الجاه".

واتسمت حياته كلها بالزهد فى المال والمناصب ومظاهر الجاه، وقد استفاض فى وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه (**) ومن ذلك أيضا مواقفه التى أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من الأخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها، وبعد أن نكلت بهم ومزقتهم كل ممزق، طلب منه مهاجمتهم ونقدهم فأبى ولم يخضع لتهديد ولا وعيد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم!! ويوم كانوا من القوة بمكان.. أما اليوم

(*) ثورة التراث، دراسة فى فكر خالد محمد خالد للدكتور شاكر النابلسى.

(**) راجع "قصتى مع التصوف" ص٤٤ وما بعدها . ط المقطم.

وهم فى المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ ألا نجهز على جريح".

وقد نقل الشيخ يوسف القرضاوى تفاصيل هذا الموقف فى مذكراته التى نشرها فى جريدة "آفاق عربية" (العدد رقم ٥٧٣).(*)

كان ـ رحمه الله ـ محبًا للخير، مسارعًا إليه، كأنه كان يصف كوامن الخير فى نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع الرسول ﷺ":

"فإذا سالتنى ـ أيها القارىء ـ ما الخير؟ أجيبك من فورى: إنه الخير.. إنه ذلك الذى يجعل الإنسان إنسانا حى القلب، ريان الضمير.. وذلك الذى يجعل منك ملاذا للآخرين، يأوون إليك كما يأوى المحرور إلى ظل شجرة، أو كما يأوى الظمآن إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد النمير.

هو انعكاس إنسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة الكريمة على الحياة وعلى الأحياء.

وإن خير ما يصنعه المرء فى حياته هو أن تسع حياته الناس رحمة وبرا، ومحبة وودا.

فكان محبا للناس، لجميع الناس، مستأنسا بهم، متوددا إليهم، متغافلا عن أخطائهم متسامحا مع من يسيئون إليه..

كان ـ باختصار ـ متخلقا بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص على أن يكسو نفسه بمظهره.. بل كان له مظهر الرجل العادى ـ كسائر الناس. أما سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان على عمق إيمان ورسوخ

(*) راجع "فصبق مع التصوف" ص٤٤ وما بعدها . ط المقطم.

يقين..

وكان يغزو ذلك إلى التصوف فيقول فى مذكراته:

"ومرة أخرى أنحنى إجلالا للتصوف، فهو الذى سكب فى روحى كل ما روى ظمأها إلى الخير والسكينة والمرحمة والمعدلة، وكل ما بقى لى بعد مغادرتى إياه من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار.. فإليه - أولا - يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب"

لقد كان - رحمه الله - ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم يكن تصوفه إلا فى قلبه، فلم ينتم إلى أى من طرقه، بل تلقاه مبكرا على يد شيخه السبكى رضى الله عنه (*)

وكان محبا لأهله أينما وجدوا مداوما على زيارة أضرحة أهل البيت، وأولياء الله الصالحين .

ومن أقواله المأثورة:

- "إنى لا أرفض إنسانا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد" .
- "إن الحب هو جوهر الحياة.. إن الحب يولد فى النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى فى الكون ولا تقابلها"
- "الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلى رضوانه، بل يجعل لهم الأرض مهدا، والسماء سبلا" .
- "على رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب"

(*) راجع قصتى مع التصوف.

- "لابد للحب كى يصفو ويدوم أن يكون خالصا، صافيا، نقيا، وبكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين".
- "كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نبعث.. ومن كان فى شك من الموت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ".
- "علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التى تفرضها وللسلوك الذى نحمل به هذه التبعات".
- "إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسر الباهر الذى تحمله، والحكمة الثاقبة التى تمنحها".
- "إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة".
- "لا تجد مؤمنا إلا حييا، ولا منافقا إلا عديم الحياء".
- "الإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة".
- "الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد".
- "الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها ترابا فى تراب".
- "التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس".
- "الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكتشف قدرك".
- وسئل عن القومية العربية فأجاب: إنى لا أعرف شيئا عن القومية العربية، ولكنى أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية".

- وقال شعرا فى عيد مولد النبى ﷺ:

يا عيد مولده كم ذا تواتينا ... تشدو فتبهجنا، تشجو فتبكينا
قل للرسول إذا ما جئت روضته ... أدرك شعوبك قد حار المداوونا

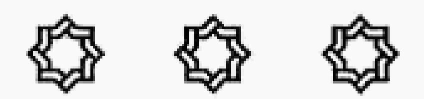
***

وفاته:

كان ـ رحمه الله ـ قد مرض مرضا طويلا، واشتد عليه فى سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله" ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له على شوق، وقد استعد له، وأوصى بما يريد..

وكان من وصيته أن يصلى عليه فى الجامع الأزهر، معهده العلمى، ومرتع صباه وشبابه، وأن يدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو فى المستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩ شوال سنة ١٤١٦هـ ـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م ـ عن عمر يناهز الستة والسبعين عاما.



اللهم إنى قد قلت فيه مبلغ علمى..

ولا يخلو كلامى من أثر حب الولد لوالده..

اللهم لا تكله إلى عمله..

واشمله برحمتك يا بر يا رحيم..

وصل اللهم على الحبيب الشفيع..

سيدنا محمد ..

وسلام على المرسلين..

والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت

